

العالم والغرب

بقلم
أرنولد توينبى

ترجمة : عبد الواحد الانبابى
مراجعة : صالح جودت

من الشرق والغرب

العالم والغرب

للمؤرخ الإنجليزي الكبير

أرنولد توينبي

ترجمة: عبد الواحد الإبياري

مراجعة: صالح جودت

الفصل الأوّل

روسيا والغرب

لعل أفضل طريقة يتقدم المؤلف بها موضوع الكتاب إلى قارئه هي أن يوضح له أولا سر اختياره هذا العنوان الذى يحمله الكتاب فلو ربما تساءل القارىء لماذا كان عنوان الكتاب العالم والغرب ؟ أليست كلمة « الغرب » من الناحية العملية اسما آخر لجزء كبير هام من أجزاء العالم اليوم ؟

وإذا كان المؤلف يشعر بأن من واجبه أن يقول شيئاً ما عن بقية العالم غير الغربى فلماذا تحتم عليه أن يضع الكلمتين على هذا النحو ؟ ولماذا لم يستطع أن يكتب الغرب والعالم بدلا من العالم والغرب ؟

لقد كان عليه على الأقل أن يضع كلمة « الغرب » أولا .

اختار المؤلف عمدا هذا العنوان الذى يحمله الكتاب حتى يحدد نقطتين تبدوان شيئاً أساسياً بالنسبة لفهم الموضوع الذى نحن بصدده .

النقطة الأولى : هى أن الغرب لم يكن يمثل فى يوم من الأيام كل العالم، بل ولم يكن الممثل الوحيد الذى يقف بمفرده على خشبة مسرح التاريخ الحديث حتى فى الوقت الذى كان فيه هذا الغرب فى قمة قوته وأوج سلطانه (وقد نستطيع أن نقول : إن قمة القوة هذه بالنسبة للغرب قد انتهت الآن ولم يعد لها وجودها السابق .

أما النقطة الثانية : فهى أن العالم فى الصراع الدائر حتى ومنذ أربعمائة أو خمسمائة عام بينه وبين الغرب . هذا العالم — وليس الغرب هو الذى مر وحده — حتى الآن بالتجربة التى كانت لها أهميتها القصوى . فليس الغرب هو الذى تعرض للصدمة التى أوقعها به العالم ، ولكن العالم هو الذى تلقى هذه الصدمة من جانب الغرب وكانت قاسية .

وهذا هو السر فى أننى حين وضعت عنوان هذا الكتاب رأيت أن اقدم أولا كلمة « العالم » على كلمة « الغرب » .

وعلى الرجل الغربى الذى يريد أن يتفهم هذا الموضوع أن يحاول ، ولو لدقائق معدودة أن ينسلخ من جلده الغربى لينظر إلى عملية الصراع التى تدور بين العالم وبين الغرب بعين الغالبية الساحقة من أعضاء الجنس البشرى الذين يعيشون داخل العالم غير الغربى .

وعلى الرغم مما قد يوجد من الاختلاف والتباين بين شعب وآخر من شعوب العالم غير الغربى من حيث الجنس واللغة والحضارة والدين فإنهم سيقفون جميعاً على إجابة واحدة فيما لو سألهم رجل غربى عن رأيهم فى الغرب . انهم روسيون ومسلمون وصينيون وهندوس ويابانيون وغيرهم من بقية سكان العالم غير الغربى — سيؤكدون له جميعاً أن الغرب كان اكبر معتد فى العصور الحديثة وأن لكل منهم تجربته الخاصة فيما يتعلق بهذا الاعتداء .

يذكره الروس مثلا بأن قوات الغرب قد غزت بلادهم فى عام ٤١ و ١٩١٥ و ١٨١٢ و ١٧٠٩ و ١٦١٠ وستذكره شعوب افريقيا وآسيا بأن ارساليات الغرب الدينية وتجاره وجنوده قد اندفعوا عن طريق البحر إلى بلادهم ووصلوا إليها عبر السواحل والشواطىء منذ القرن الخامس عشر ، وسيذكره الأسيويون أيضاً بأن العناصر الغربية — فى نفس هذه الفترة — قد استولت على نصيب الأسد من أراضى العالم الخالية فى الأمريكيتين واستراليا و نيوزيلاند وجنوب افريقيا وشرقها وسيذكره الافريقيون بأن الغرب قد حولهم إلى رقيق وذهب بهم عبر شواطىء الأطلنطى لكى يقوموا بوظائف الخدم عند المستعمرين الأوربيين فى الأمريكيتين كآلات حية تعمل لإرضاء طبع أسيادهم الغربيين وإشباع نهمهم فى تكوين الثروات ، وسيذكره أحفاد سكان أمريكا الشمالية الأصليين بأن الغرب قد قضى على أجدادهم لكى يخلى المكان للدخلاء من أبناء أوروبا الغربية من معهم من عبيدهم الأفريقيين .

وليس من شك فى أن هذه الاتهامات ستدهش معظم الغربيين اليوم وتهزهم وتحزنهم ، بل ربما تثير ثائرتهم وتدينهم فالغربيون من أبناءهو لندا يعرفون أنهم قد تركوا أندونيسيا ، والغربيون البريطانيون قد جلوا عن الهند وباكستان وبورما وسيلان منذ عام ١٩٤٥ .

وإننا لنفسى جميعاً ، بل ننسى فى سهولة أن الألمان الذين اعتدوا على جيرانهم بما فى ذلك روسيا فى الحربين العالميتين الأولى والثانية هم أيضاً من العنصر الغربى ، ومن المعروف أن الروس والأسيويين والافريقيين جميعا لايميزون تمييزاً دقيقاً بين الأقوام المختلفة من « الفرنجه franka وهو الاسم الشائع عن الغربيين بصفه عامة فى جميع أنحاء العالم . وعندما يجمع العالم على إصدار حكم يكون دائما الحكم الأخير الذى لا يقبل النقض ولا الإبرام كما يقول المثل اللاتينى المعروف .

ولا شك فى أن هذا الحكم الذى يصدره العالم على الغرب يبدو أنه كان له ما يبرره خلال فترة الأربعة والنصف قرن التى انتهت عام ٤٥ ، فلقد كان الغرب فى ضوء تجربة العالم به خلال كل هذه السنوات يمثل المعسكر المعتدى الوحيد على الجميع .

وإذا كانت روسيا والصين تعكسان اليوم هذا الوضع ضد الغرب فإن ذلك يعنى ظهور فصل جديد فى القصة التى لم تبدأ حلقاتها الأولى إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية . وواضح أن خوف الدول الغربية وانزعاجها من الأعمال العدوانية التى تقوم بها كل من روسيا والصين على حساب الغرب دليل على أن المسألة بالنسبة للشعوب الغربية تعنى تجربة غريبة يقاسى منها الغرب اليوم ماسبق أن قاساه العالم على ايدى الغربيين خلال عدة قرون مضت .

وإننا لنتساءل هنا مرة أخرى عن ماهية هذه التجربة التى مر بها العالم مع الغرب وسيكون من الضرورى أن نبدأ أولا بتجربة روسيا معه ، لأن روسيا بالذات تعتبر جزءاً من الأغلبية الساحقة التى تشكل العالم غير الغربى ، فالروس على الرغم من أنهم كانوا مسيحيين ولا زال عدد كبير منهم حتى اليوم مسيحيين

فانهم لم يكونوا أبداً مسيحيين غربيين ، ذلك لأن روسيا لم تتلق دينها من روما — كما فعلت انجلترا مثلا — بل تلقته من القسطنطينية .

وعلى الرغم من اشتراك المسيحية الشرقية والغربية فى أصولها المسيحية الأولى فإن كلا منهما كانت اجنبية عن الأخرى وكان التنافر والكراهية والعداء تملأ قلب كل منهما حيال الثانية تماماً كما هو الحال الآن بين روسيا والغرب فى هذه المرحلة التى يمكن أن يسميها الإنسان مرحلة ما بعد المسيحية فى تاريخها .

وهذه القصة المؤلمة على وجه العموم وهى قصة علاقات روسيا بالغرب قد بدأت بفصل أسعد حالا ، فقد كانت كل من روسيا والغرب على الرغم من اختلاف طريقة الحياة بينهما تتعايشان فى جو من التعاطف الودى الطيب وذلك فى الفترات الأولى من العصور الوسطى حيث كان هناك تبادل تجارى بين شعوبهما وكان هناك امتزاج وثيق تم بين الأسرات المالكة فى كل من العالمين عن طريق الزواج كما حدث مثلا حين تزوج أحد الأمراء الروس ابنة هورولد ملك انجلترا .

غير أن النفور بدأ يظهر بين روسيا والغرب خلال القرن الثالث عشر بعد ان استولى التتار على روسيا هؤلاء الذين كانت سيطرتهم عليها تأخذ دائما شكل السيطرة المؤقتة فلم يكن التتار سوى جماعة من البدو الرحل ، وفدوا من المراعى ولم يستطيعوا أن يتخذوا من حقول روسيا ولا من غاباتها مكانا يستقرون فيه استقراراً تاما ، وكانت خسارة روسيا المستمرة نتيجة لهذا الغزو التتارى المتكرر خسارة لم يستفد منها الغزاة التتار أنفسهم بقدر ما استفاد منها جيرانها الغربيون لأن هذه الدول الغربية قد نجحت فى أن تنتهز فرصة الضعف الذى أصاب روسيا فى ذلك الوقت واقتطعت الأطراف الغربية من العالم الروسى فى روسيا البيضاء وفى النصف الغربى من أوكرانيا ثم ضمتها إلى ممتلكاتها ، ولم تستطع روسيا أن تسترد الجزء الأخير من هذه المناطق الروسية الشاسعة التى استولت عليها الدول الغربية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . إلا عام ١٩٤٥ .

ولقد كان لهؤلاء الغزاة الغربيين — وكان ذلك على حساب روسيا — أثر

فى الحياة الروسية بالداخل كما كان لهم أثر كذلك على علاقاتها بغزاتها الغربيين وذلك فى الفترة الأخيرة من العصور الوسطى .

والواقع أن ضغط الغرب على روسيا لم يكن سبباً فى وجود روح التنافر عند الروس من الغرب فقط بل كان من العوامل التى دفعت الروس إلى أن يذعنوا لسلطة روسية قومية جديدة مركزة فى موسكو ، وهى السلطة التى فرضت على روسيا كلها الوحدة السياسية التى كان عليها الآن أن تحتفظ بها لو قدر لها أن تبقى .

ولم يكن من قبيل الصدفة أن توجد هذه الحكومة الروسية الأوتوقراطية المركزية الجديدة فى موسكو لأن هذه المدينة تقع عند منتصف أسهل خط لغزو المنطقة الروسية التى تركها المعتدى الغربى . ومن المعروف أن القوات البولندية قد اتخذت هذا الطريق عند زحفها عام ١٦١٠ كما فعلت فرنسا عام ١٨١٢ وكما فعلت المانيا عام ١٩٢١ . ومنذ أوائل القرن الرابع عشر ظلت الأوتوقراطية والمركزية طابعين يسودان كل الحكومات الروسية المتعاقبة . وربما كان هذا التقليد السياسى فى روسيا شيئاً لا يحظى بموافقة الروس أنفسهم كما كان كذلك أمراً مستهيناً بل ومزعجاً لجيرانهم ولكن الروس لسوء الحظ قد تعلموا كيف يحتملونه ويصبرون عليه لأنه أصبح جزءاً من تقاليدهم الأصلية ولأنهم أحسوا ايضاً بأنه سيكون أهون عليهم من المصير البديل المحتوم وأعنى به غزو جيرانهم لهم .

وهذا الموقف من جانب الروس وهو موقف الإذعان والخضوع للحكم الأوتوقراطى الذى أصبح أمراً تقليداً عندهم أصبح يمثل من غير شك أحد الصعوبات الروسية فى مجال العلاقات بين الروس والغرب اليوم . فالغالبية العظمى من شعوب الغرب تشعر بأن الاستبداد والطغيان شر اجتماعى لا يمكن احتماله ، ولقد بذلنا الكثير لكى نقضى على الاستبداد حين أطل برأسه بين شعوب الغرب فى صورة فاشية واشترا كية قومية ونشعر بنفس هذه الكراهية والريبة والمقت لهذا الاستبداد فى شكله الروسى ، سواء أطلق على نفسه اسم

« القيصرية » أو « الشيوعية » ولا نريد أن نرى هذا النوع من الاستبداد الروسى ينتشر أو يتسع مداه ، فإننا نشعر بقلق بالغ تجاه ما يشكله هذا الوضع من خطر على مثلنا الغربية العليا ، مثلنا فى الحرية التى نرى أنفسنا نحن « الفرنجة » ملزمين بالدفاع عنها لأول مرة فى تاريخنا بعد حصار الترك لفينا عام ١٦٨٢ — ١٦٨٣ ولا شك فى أن ما نشعر به الآن من قلق حيال ما يبدو تهديد ما بعد الحرب من جانب روسيا إزاء الغرب له ما يبرره فى اعتقادنا . وعلينا فى الوقت نفسه أن نكون يقظين بحيث لا نسمح للنكسة التى أصابت العلاقة بين روسيا والغرب منذ عام ١٩٤٥ بأن تنسينا الماضى ونحن نهتم اهتماماً طبيعياً بالحاضر .

فعندما ننظر إلى الصراع بين روسيا والغرب بعين المؤرخ لا بعين الصحفى نجد أن الروس خلال فترة امتدت عدة قرون وانتهت فى عام ١٩٤٥ كانت لديهم نفس الأسباب التى جعلتهم ينظرون إلى الغرب بعين الشك التى نحس نحن الغربيين بأننا ننظر بها إلى روسيا اليوم .

وخلال القرون القليلة الماضية أصبح هذا التهديد الغربى على روسيا وهو التهديد الذى ظل قائماً منذ القرن الثالث عشر حتى عام ١٩٤٥ أكثر خطورة عليها بسبب ظهور الثورة التكنولوجية فى الغرب ، وهو العامل الذى لا يزال قائماً حتى اليوم لم يظهر عليه أى أثر من آثار الضعف أو الوهن .

فعندما اخترع الغرب الأسلحة النارية اقتفت روسيا آثاره واستعملت هذه الأسلحة الجديدة فى القرن السادس عشر لقهر التتار فى وادى الفولجا والتغلب كذلك على الشعوب الأكثر بدائية فى جبال الأورال وسيبيريا ولكن تفوق الأسلحة الغربية على ما عداها من الأسلحة التى كانت موجودة فى عام ١٩١٠ مكن البولنديين من احتلال موسكو والسيطرة عليها لمدة عامين فى الوقت الذى تمكن فيه السويديون أيضاً من أن يحرموا روسيا من منفذها على البحر البلطيق عند رأس الخليج الفنلندى .

وكان رد الروس على هذه الأعمال العدوانية التى قام بها الغرب خلال القرن

السابع عشر هو أنهم اتخذوا تكنولوجية الغرب بكليتها بما فى ذلك أساليب الحياة الغربية باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من التكنولوجية الغربية .

وكان من خصائص الحكم المسكوبى الذى كان يتميز بالأوتوقراطية والمركزية أن هذه الثورة التكنولوجية والثورة الاجتماعية المصاحبة لها التى أدخلت روسيا فى فترة الانتقال والتحول فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فرضها عليها من أعلى إلى أسفل حكم رجل عبقرى واحد هو بطرس الأكبر. فقد كان هذا الرجل بحق الشخصية التى يمكن أن تعتبرها مفتاح فهم علاقات العالم بالغرب ، لا فى روسيا وحدها ، بل فى كل مكان آخر . لأن بطرس هذا يعد بلا شك نموذجا أساسياً ورئيسياً للمصلح الأوتوقراطى الذى تأثر بالغرب والذى أنقذ العالم خلال المائتين والخمسين عاما الماضية من أن يقع تماماً تحت السيطرة الغربية وذلك بإرغامه العالم على أن يدرب نفسه على مقاومة العدوان الغربى باستخدام الأسلحة الغربية فقد اقتفى السلطان سليم الأول ومحمد الثانى والرئيس كمال أتاتورك فى تركيا ، وكذلك كبار رجال السياسة الذين أحدثوا ثورة غربية فى اليابان فى النيف والستين من القرن الثامن عشر — كل هؤلاء اقتفوا أثر بطرس الأكبر عن عمد أو عن غير عمد . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن بطرس الأكبر قد أطلق روسيا فى ميدان السباق التكنولوجى مع الغرب وهو السباق الذى لازالت روسيا تجرى خطواته فى سرعة ولم تستطع أن تتوقف فيه لحظة واحدة لتستريح من عنائه لأن الغرب يوالى سيره من كل يوم ليحرز خطوات جديدة

ولقد حرص بطرس الأكبر كما حرص خلفاؤه الذين أتوا من بعده خلال القرن الثامن عشر جميعاً على أن تقترب روسيا إلى حد كبير من الغرب وتسير جنباً إلى جنب معه يومذاك حتى تستطيع أن تهزم غزاتها الغربيين من أبناء السويد عام ١٧٠٩ والفرنسيين فى عام ١٨١٢ غير أن الغرب أثناء ثورته الصناعية فى القرن التاسع عشر قد استطاع ان يتقدم ويترك روسيا خلفه حتى أنها انهزمت فى الحرب العالمية الأولى على أيدى غزاتها الغربيين من الألمان كما هزمت قبل ذلك بمائتى عام على ايدى البولنديين والسويديين واستطاعت

الحكومة الشيوعية الأوتوقراطية القائمة يومذاك أن تحل محل القيصرية في روسيا نتيجة لهزيمتها على أيدى التكنولوجية الغربية الصناعية .

وبدأ الحكم الشيوعى من عام ١٩٢٨ حتى عام ١٩٤١ يحقق لروسيا مرة أخرى ما سبق أن حققه بطرس القيصر لها منذ ٢٣٠ عاما مضت .

وللمرة الثانية فى المرحلة الحديثة من تاريخ روسيا يرغمها حاكم أوتوقراطى على أن تلحق بركب التكنولوجية الغربية ولقد كان لسياسة الاستبداد التى استعملها ستالين فى عهده لتحويل تكنولوجية روسيا إلى تكنولوجية غربية كان لهذه السياسة فى الواقع ما يبررها فإن الثورة التكنولوجية فى روسيا الشيوعية كانت عاملا رئيسيا ساعدها على أن تهزم غزاتها الألمان اثناء الحرب العالمية الثانية تماما كما كانت الثورة التكنولوجية فى عهد بطرس الأكبر سببا فى أن تنتصر روسيا على الغزاة السويديين عام ١٧٠٩ والفرنسيين فى عام ١٨١٢ .

وقد حدث بعد أشهر قليلة من إتمام تحرير روسيا أراضيها من الاحتلال الغربى الألمانى فى عام ١٩٤٥ أن ألقى حلفاء روسيا الغربيون قنبلة ذرية فى اليابان فكان ذلك إيذانا بظهور الثورة التكنولوجية الغربية الثالثة . ولذلك أصبح على روسيا للمرة الثالثة فى تاريخها أن تغذ السير بعنف وأن تبذل الجهد الكبير لكى تلحق بالتكنولوجية الغربية التى خلفت روسيا للمرة الثالثة وراءها بعد أن اندفعت هى إلى الأمام خطوات واسعة .

ولا زالت نتيجة هذا الحادث الثالث فى مجال التنافس المستمر بين روسيا والغرب أمراً غامضا فى المستقبل ولكنه أصبح من الواضح أن عودة السباق التكنولوجى يعنى عودة المشاكل والصعاب الخطيرة التى تكتنف العلاقات اليوم بين هذين المجتمعين المسيحيين سابقا .

والمعروف ان كلمة تكنولوجى اسم إغريقى طويل كان يطلق على حقيبة الآلات ، وعلينا الآن ان نسأل انفسنا هذا السؤال . ما هى الآلات التى تلتمس ذات قيمة فى هذا التنافس عندما تستخدمها كوسيلة من وسائل القوة ؟

ان نول النسيج ذا القوى اوقاطرة السكك الحديدية تمثلان آلتين من الآلات التى تصلح لهذا الغرض وكذلك البندقية والطائرة .

ولكن .. ليست كل الآلات من النوع المادى ، فهناك آلات روحية أيضاً وهى أكثر الآلات التى صنعها الإنسان فعالية ، فالعقيدة مثلا يمكن أن تكون آلة . وقد حدث أثناء الدورة الجديدة من دورات التنافس بين روسيا والغرب وهو التنافس الذى ظهر ابتداء من عام ١٩١٧ أن ألقى الروس فى كفتهم فى الميزان عقيدة تزن وزنا ثقيلا فى مقابل الآلات المادية التى يملكها منافسوهم الغربيون تماما كما حدث حين ألقى « برناس » السيف ليزن بكفته كفة الذهب الرومانى كما هو معروف فى القصة الرومانية الشهيرة عندما أراد برناس افتداء روما من أيدى أبناء فرنسا القديمة .

وإذن فالشيوعية سلاح — وهى مثل القنابل والطائرات والمدافع - ينتمى إلى أصل غربى فلو لم يكن اثنان من الغربيين فى القرن التاسع عشر ، واعنى بهما كارل ماركس وفريدرك انجلز اللذين عاشا فى أرض الراين ، وقضى كل منهما أهم جزء من حياته العملية فى لندن ومانشستر على التوالى — اقول لو لم يكن هذان الرجلان قد اخترعا الشيوعية لما امكن ان تصبح هذه العقيدة ايديولوجية رسمية لروسيا فلم يكن هناك شىء فى التقاليد الروسية يمكن ان يؤدى بالدرس إلى اختراع هذه العقيدة الشيوعية لأنه من المؤكد انهم لم يحلموا بها لو لم تكن معدة سلفاً فى الغرب لكى تطبقها الحكومة الثورية الروسية فى روسيا عام ١٩١٧ .

وحين اقتبس البولشفيك من الغرب الايديولوجيه الغربية بالاضافة إلى ما اقتبسوه منه أيضا من ثورة صناعية غربية لكى يتخذوا منهما سلاحا يواجهون به الغرب كانوا يحققون فى عام ١٩١٧ عملية انتقال جديدة وعظيمة فى التاريخ الروسى ، لأن هذه المرة كانت أول مرة تقتبس فيها روسيا عقيدة من الغرب .

ولقد عرفنا من قبل أن المسيحية حين أتت إلى روسيا لم تأت إليها من الغرب وإنما جاءت إليها من الدولة البيزنطية حيث كان للمسيحيين فيها روح وشكل غير غربيين وكانت تختلف عن مسيحية الغرب .

وقد باءت كل المحاولات التى بذلها الغرب فى القرن الخامس عشر لفرض المسيحية الغربية على أوربا بالفشل الذريع . ففى اجتماع المجلس الأكليريكى الذى انعقد فى مدينة فلورنسا عام ١٤٣٩ اعترف ممثلو الكنيسة الارثوذكسية الشرقية التى كانت لا تزال يومذاك تابعة للامبراطورية البيزيطية مكرهين بسيادة بابوية روما الاكليريكية على أمل أن العالم الغربى بدوره — قد ينقذ القسطنطينية من الغزو التركى ، وكان أسقف موسكو المركزى ، وهو الذى كان دليلا لبطريرك القسطنطينية اليونانى حاضرا اجتماع المجلس ، وصوت بنفس الطريقة التى صوت بها زملاؤه الذين كانوا يمثلون الكنيسة الارثوذكية اليونانية ولكن هذا الاسقف حين عاد إلى موسكو وجد أن الروس قد رفضوا اعترافه بسيادة البابا وليس هذا فحسب بل إنهم خلعوه أيضا من منصبه .

وعندما ذهب بطرس الأكبر إلى الغرب بعد ذلك بمائتين وخمسين عاما ليعرف كيف وصل هذا الغرب إلى تكنولوجيته الحديثة لم يعد هناك أى الحاح من جانب الغرب بأن تتخذ روسيا الشكل الغربى للمسيحية كثمن لأن تكون أول دولة تتعرف على اسرار طاقة الغرب التكنولوجية .

ولم تأت السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر حتى كانت قد ظهرت فى الغرب حركة نفور لا من التزمت الدينى فحسب بل من الدين نفسه كنتيجة للفتور الذى اصاب الغرب من الحروب الداخلية التى قامت بسبب الدين .

وهكذا كان العالم الغربى — فى الوقت الذى كانت فيه روسيا وهى تلميذة الغرب تحت حكم بطرس الأكبر — قد تحول إلى عالم ضال متزندق ، وسادت الاقلية الروسية التقدمية التى أصبحت تمثل فى روسيا جماعة العملاء التى تعمل على انجاح حركة «تغريب» روسيا سارت هذه الاقلية على النمط الذى كان يسير عليه معاصروهم من الغربيين التقدميين وذلك حين تحولت هذه الأقلية إلى جماعة يملأ قلبها نفور شديد من الشكل المسيحى الذى كان موجودا داخل روسيا فى ذلك الوقت دون أن تفكر فى اللجوء إلى اتخاذ أى شكل آخر من أشكال المسيحية الغربية بدلا منها :

وهكذا كانت روسيا حين اتخذت النظام الشيوعى عام ١٩١٧ تتخلى عن تقاليدها التى درجت عليها إذ اتخذت ولأول مرة فى تاريخها عقيدة غربية (الشيوعية) .

ويلاحظ القارىء أن هذه العقيدة الغربية التى اتخذتها روسيا عام ١٩١٧ كانت العقيدة التى أدت دورها بالنسبة لروسيا كسلاح غربى استخدمته فى إعلان حرب معادية للغرب . وكان الغربيون ينظرون إلى هذه العقيدة الجديدة الشيوعية التى انبثقت أصلا من بلادهم على أنها طريقة أو زيغ دينى كما كانت هذه العقيدة أيضا نقدا غربيا لفشل الغرب فى أن يساير مبادئها المسيحية فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية لهذا المجتمع الذى يرى أنه مسيحى .

ولقد كانت هذه العقيدة التى تنتمى إلى أصل غربى والتى كانت تمثل فى الوقت نفسه اتهاما لما يجرى فى الغرب . بمثابة السلاح الروحى الذى التقطه عدو الغرب ووجهه ضد صانعيه واستطاعت روسيا التى امسكت بهذا السلاح الروحى الغربى فى يدها أن تنقل حربها مع الغرب إلى ارض دولة العدو على متن طائرة روحية .

ولما كانت الشيوعية قد ظهرت نتيجة لنفوس غربية قلقة فإنها استطاعت أن تهيب كذلك بنفوس غربية قلقة أخرى وذلك حين عملت الدعاية الروسية على ترويج الشيوعية مرة ثانية فى العالم الغربى .

ولهكذا حدث الآن ولأول مرة فى تاريخ العالم الغربى الحديث منذ نهاية القرن السابع عشر أن وجد الغرب نفسه مرة ثانية مهددا بانهيار روحى يأتيه من الداخل كما وجد نفسه مهددا بهجوم يأتيه من الخارج . وفى هذا التهديد تحطيم أسس الحضارة الغربية فى أرض الغرب نفسه واثبتت الشيوعية أنها سلاح معاد للغرب تمسك به روسيا وهو أكثر فعالية من أى سلاح مادى يمكن أن يكون .

ولقد كانت الشيوعية أيضا بالنسبة لروسيا بمثابة السلاح الذى استخدمته لكى تدخل إلى معسكرها الشعب الصينى وهو الشعب الذى يمثل ربع الجنس البشرى

كما تدخل كذلك قطاعات أخرى من هذه الاغلبية البشرية التى ليست بغربية ولا بروسية .

ونحن نعرف جيدا أن نتيجة الكفاح من أجل الحصول على ولاء هؤلاء الحياديين قد تكون أمرا حاسما بالنسبة لنتيجة الصراع الروسى الغربى بصفة عامة لأن هذه الاغلبية البشرية من السكان الذين لا يعتبرون جنسا أوربيا ولا روسيا سيكون لها وزنها فى ترجيح كفة الميزان فى صراع يقوم بين روسيا والغرب من أجل القوة العالمية. وتستطيع الشيوعية الآن ان توجه نداء مزدوجا إلى الفلاحين والقرويين والفقراء فى كل من أسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، ففى استطاعة المتحدث الروسى الرسمى ان يقول اولا لفلاحى آسيا إذا اتبعتم النظام الروسى فإن الشيوعية ستمدكم بالقوة لكى تقفوا فى وجه الغرب لأن روسيا الشيوعية تستطيع ان تقف امامه اليوم فعلا اما النداء الثانى الذى تغرى به الشيوعية الفلاحين الأسيويين فهو ادعاء الشيوعية انها تستطيع ان تقضى على التباين الكبير بين الاقلية المرفهة الغنية والاغلبية التى يكاد يقتلها الجوع والحرمان فى الدول الاسيوية وهى الخطوة التى ترى الشيوعية انها لا يمكن ان تحققها المشروعات الفردية .

ومهما يكن من امر فإن هؤلاء الأسيويين المتذمرين ليسوا وحدهم العناصر الجماهيرية التى تعتمد الشيوعية فى اغرائها عليهم فإن الشيوعية كذلك تعمل على اغواء جميع الناس مادامت تستطيع ان تدعى انها تقدم للجنس البشرى الوحدة التى هى بديلنا دون غيرها عن الفناء الذاتى فى عصر ذرى رهيب

ويبدو كما لو كانت المبادأة الروحية فى الصراع بين روسيا والغرب قد انتقلت الآن من جانب الغرب إلى جانب روسيا ونحن الغربيين لا يمكن ان نسلم بهذا لأن هذه الهرطقة الدينية واعنى بها الشيوعية التى اتخذها الروس تبدو فى نظر الأغلبية من شعوب الغرب مبدأ وطريقة للحياة هدامة متمردة ضالة .

وقد يقول احد علماء اللاهوت ان كارل ماركس اكبر زنديق غربى فى عصرنا — قد ارتكب مايمكن ان يكون خطأ فكريا فى الدين وضلالا خلقيا .

وعندما وضع أصبعه على إحدى النقط فى التطبيق الأوثوذكسى الذى كان يوجد فيه حاجة ماسة للإصلاح فقد رؤية كل الاعتبارات ومن ثم قدم علاجا كان أسوأ من المرض .

وليس من جدال فى أن هذا النجاح الأخير الذى أحرزه الروس فى انتزاعهم المبادأة منا نحن الغربيين بفضل اتخاذهم هذا الانحراف الغربى أى ما يسمى بالشيوعية لا يعنى بالطبع أن الشيوعية قد قدر لها أن تسود . فخيال كارل ماركس يبدو فى نظر غير الماركسيين من ضيق الأفق وسوء النسج بحيث لا يمكن أن يظل إلى الأبد موضع اقتناع عقول الناس ومهوى قلوبهم وأفئدتهم ، فإن نجاح الشيوعية بقدر ما وصلت إليه يبدو كنذير مشئوم لما يأتى بعد ذلك من أشياء ، فإن ما يعنيه هذا النذير أو هذا النجاح هو أن الصراع الذى يدور اليوم بين العالم والغرب يدفع بالطائرة التكنولوجية إلى مقدمة الطائرة الروحية .

وقد نجد فى تاريخ الصراع العالمى القديم مع الأغريق والرومان بعض الضوء الذى يوضح لنا ظلام الفصل التالى من القصة الذى لا يزال بالنسبة لنا أمرا يتعلق بالمستقبل ، غير أن علينا قبل أن ندرس هذا الموضوع أن نعرف أولا كيف كان العالم الإسلامى والهندى وعالم الشرق الأقصى تسير فى صراعها مع كل من الغرب وروسيا كذلك .

الفصل الثانى

الإسلام والغرب

فى الفصل السابق من هذا الكتاب وضحنا نقطتين يتعلق كل منهما بالصراع بين روسيا والغرب .

النقطة الأولى منها هى أن روسيا قد عملت على أن تجعل من نفسها دوله تقف أمام الغرب بفضل ما اقتبسته منه من أسلحة غربية .

والنقطة الثانية هى أن من بين هذه الأسلحة التى اتخذتها روسيا عن الغرب سلاح العقيدة وعن طريق هذه العقيدة القومية وأعنى بها الشيوعية استطاعت أن تنتقل من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم المضاد الذى أصبح يسبب لنا اليوم قلقا شديدا فى الغرب .

على أن قصة العلاقات بين روسيا ومجتمعنا الغربى خلال الفترة التى عشناها تعتبر من بعض النواحى تكرارا لقصة أقدم وهى القصة التى لعب فيها الإسلام مع الحضارة الإغريقيه الرومانية نفس الدور الذى لعبته روسيا مع الحضارة الغربية الحديثة .

ولقد مهد الإسلام لنفسه طريق سيره كبرنامج إصلاحى يعالج المساوى والعيوب التى كانت عليها الحياة المسيحية فى عصره ويوضح نجاح الإسلام فى أيامه الأولى كيف تمكن أن تكون قوة دعوة الاتجاه الإصلاحى عندما يرفض دين السلف الذى تهاجمه هذه الدعوة تعديل وسائله وإصلاح أساليبه .

ولقد استطاع العرب المسلمون فى القرن السابع الميلادى أن يحرروا من قبضة النفوذ الإغريقى والرومانى مجموعة الدول الشرقية التى تقع فى المنطقة الممتدة من روسيا عبر شمال إفريقيا حتى أسبانيا . وهى الدولة التى ظلت خاضعة للحكم

الإغريق أو الرومانى قرابه ألف عام منذ أن قهر الاسكندر الأكبر الأمبراطورية الفارسية وقهر الرومان كذلك قرطاجنه .

ثم حدث بعد ذلك أى خلال الفتره التى تقع بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر أن استمر المسلمون فى مراحل مختلفه يحرزون النصر تلو النصر حتى استولوا على كل شبه القاره الهنديه تقريبا وأخذ دينهم ينتشر فى سلام ودون حرب إلى أندونيسيا والصين فى الشرق وإلى أفريقيا الأستوائية فى الجنوب الغربى وخضعت روسيا أيضاً كما رأينا خضوعاً مؤقتا فى أواخر العصور الوسطى للتتار الذين اعتنقوا الإسلام .

أما بقية المسيحيين الأرثوذكس الشرقين فى آسيا الصغرى وجنوب أوربا الشرقية فقد انتصر الترك العثمانيون المسلمون على بلادهم فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر وحاصر الأترك فينا للمرة الثانية منذ عهد لا يتجاوز عام ١٦٧٢ — ١٦٨٣ وعلى الرغم من أن فشل هذا الحصار كان من علامات بداية تحول المد لصالح الغرب فى صراعه مع الأمبراطورية العثمانية المعتدية فإن راية الهلال كانت لا تزال تخفق على الشاطىء الادرياتيكى المواجه للطرف الجنوبى الشرقى من ايطاليا منذ فترة ليست ابعد من عام ١٩١٢ .

وليس من شك فى ان هذه الانتصارات العسكرية والسياسية الكبيرة فى المراحل الأولى من تاريخ الإسلام تفسر لنا سر تباطؤ الترك وشعوب الممالك الإسلامية الأخرى فى الأخذ بسياسة بطرس الأكبر اى ان تجعل من نفسها دولا تقف أمام الغرب بعد ان تقتبس منه اسلحته وأدواته ونظمه وافكاره فالمعروف ان تغريب روسيا (تكنولوجيا) قد بدا على يد بطرس الأكبر بعد اقل من مائة عام من احتلال الغزاة الغربيين البولنديين لموسكو فى الفترة ما بين عامى ١٦١٠ — ١٦١٢ وعلى العكس من ذلك فإن اى سلطان تركى لم يتخذ ايه خطوة اوليه نحو تدريب جيش المشاه التركى على النظام الغربى إلا بعد مرور اكثر من مائة عام على وقوع الكارثة التى حلت بتركيا فى فيينا عام ١٦٨٣ .

ومرت مائتان وسبعة وثلاثون عاما قبل أن يقوم رجل ينتمى إلى طائفة رجال السياسة الأتراك بالهاب حماس شعبه ودفع مواطنيه إلى اقتباس طريقة الحياة الغربية دون ما تحفظ ولا تباطؤ ، فإن صدمة الهزيمة التى تلقتها تركيا على أيدى روسيا فى الحرب الروسية التركية الكبرى التى استمرت من عام ١٧٦٨ حتى عام ١٧٧٤ كانت بمثابة الحافز الذى دفع السلطان سليم الثالث — الذى تولى العرش فى عام ١٧٨٩ إلى القيام لأول مرة بتنفيذ برنامج الإصلاحات العسكرية الذى قام به . فحتى هذا التاريخ كان الاتراك لا يزالون ينظرون إلى الروس على أنهم أولاد عمومة لرعايا الترك من البلغاريين واليونان الأرثوذكس المسيحيين الشرقيين الذين يحتقرهم الترك غير أن الأتراك فى نفس هذا الوقت كانوا يقاسون الشىء الكثير من الهزيمة الفادحة التى أوقعها بهم هؤلاء الروس الأجلاف والسبب فى ذلك هو إجادة هؤلاء الروس تكنيك العسكرية الغربية .

أما فيما يتعلق بحركة التغريب الشاملة التى قام بها مصطفى كمال أتاتورك فى عام ١٩١٩ فإننا قد نشك فيما إذا كان هذا الرجل ببصيرته النافذة وبعد نظره الثاقب وقوته الدافعة الجبارة سينجح فى إخراج تركيا من تقليديتها المحافظة العتيقة لو لم يجد الأتراك أنفسهم بعد الحرب العالمية الأولى فى موقف اختيارى حتمى بين أمرين لا مفر منهما . فإما أن يأخذوا أنفسهم بالنظام الغربى فى حماس واندفاع ، وإما أن يفضلوا الطرف الآخر ومعناه الفناء المطلق الشامل .

والواقع هو أن الهجوم الغربى المضاد على العالم الإسلامى — وهو الهجوم الذى كان مقدراً له أن يقع إن آجلا أو عاجلا بعد فشل الأتراك فى فيينا عام ١٦٨٣ — هذا الهجوم قد تأخر بسبب ما يحفظه الغرب من ذكريات بعيدة الزمن عن الشجاعة العسكرية التاريخية التى كان عليها الأتراك والشعوب الإسلامية الأخرى . وكان رد العالم الغربى على غزو الأتراك للبلاد المسيحية الأرثوذكسية الشرقية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر هو ألا يقوم بهجوم أمامى جديد على العالم الإسلامى على نمط الحروب الصليبية التى منيت بهزيمة ساحقة بل بتطويق المسلمين عن طريق السيطرة على المحيط .

ودفع الطواف حول أفريقيا عن طريق البحر ، البرتغاليين ، وهم بحارة غربيون ، إلى الشاطىء الغربى للهند وذلك قبل عدة سنوات من وصول المغول إليه من آسيا الوسطى عن طريق البر ، وهؤلاء المغول يمثلون آخر موجة من موجات الهجوم الإسلامى على الهند ، على أن اجتياز الأسبان المحيطين الأطلنطى والباسفيكى عن طريق المكسيك قد أقام فى جزر الفيلبين حدا جديداً فى الجبهة الشرقية من آسيا بين البلاد المسيحية الغربية وبين البلاد الإسلامية التى كانت تجاورها حتى ذلك الوقت على الجانب الآخر للكرة الأرضية فى وادى الدانوب وفى المنطقة الغربية من البحر الأبيض المتوسط .

ولاشك فى أن العالم الغربى قد نجح قبل نهاية القرن السادس عشر — ويرجع الفضل فى ذلك بالطبع إلى استيلائه على المحيط — فى محاصرة الدول الإسلامية ولم يحدث أن اشتد هذا الحصار على نحو عنيف إلا فى بداية القرن التاسع عشر وحتى فى ذلك الوقت كانت الذكريات التى يحتفظ بها كلا الجانبين عن شجاعة المسلمين العسكرية ومراسهم العسكرى أيضاً فى الماضى سبباً فى أن يظل الغربيون على حذر ، وأن يظل المسلمون فى حالة الرضا أو الاطمئنان الذاتى .

وكانت التجربة التى حطمت فى بطء نوبة الرضا الذاتى التى كان عليها المسلمون هى تلك الهزيمة العسكرية الثانية التى أصابت الإمبراطورية العثمانية وغيرها من الدول الإسلامية الأخرى على أيدى أعداء مسلحين بالأسلحة الغربية والتكنولوجيا الغربية والعلم الغربى وهى التى تعتبر فى مجموعها العمود الفقرى لفنون الحرب الغربية الحديثة .

وكان رد الفعل لهذه التجربة عند المسلمين هو نفس رد الفعل الذى حدث للروس . والمؤكد أن الضابط العسكرى أو البحرى فى تركيا ابتداء من عام ١٧٨٩ حتى عام ١٩١٩ وكذلك فى روسيا ابتداء من عام ١٦٩٩ حتى عام ١٨٢٥ كان هو النموذج الثورى للرجل الذى ينادى بالاتجاه الغربى والاقتباس من الغرب وكان هذا الأمر بالنسبة للعقلية العربية مسألة تدعو إلى الدهشة لأن أفراد كتائب ضباط الجيش فى القوات المحاربة فى أية دولة من الدول الغربية لا يمثلون بذور

الثورة بقدر ماهم حماة للتقاليد المحافظة ولكن هذا هو ما حدث : والحقائق لا يمكن التنازع أو الاختلاف حولها . فني روسيا — مثلا — كان أكثر أعوان القيصر بطرس الأكبر فعاليه فى تنفيذ برنامجه الثورى نحو تغريب روسيا من بين ضباط حرسه من الشبان . وبعد حكمه بأكثر من مائة عام كان الضباط العسكريون الذين تأثروا بالأفكار السياسية الغربية التى كانت سائدة فى الغرب فى عام ١٨١٤ عندما كانوا يخدمون فى جيش الاحتلال التابع للحلفاء فى فرنسا كان هؤلاء الضباط هم الذين وضعوا خطط ثورة ١٨٢٥ ضد القيصر التقليدى المحافظ « نيقولا الأول » والتى لم يقدر لها النجاح .

وفى القرن التاسع عشر كانت الرسالة النموذجية لأى نبى أوقائد ثورى روسى هى أن يكون ابناً لأحد ملاك الأراضى الأثرياء يلتحق بالخدمة العسكرية أو المدنية وينشر المقالات التى تتسم بالطابع الفلسفى فى مجلة ادبية ثم يعتزل عمله كموظف فى الحكومة الامبراطورية فى سن مبكرة ليقضى بقية حياته يعيش كرجل اجر ارضه وتفرغ لخدمة قضية الإصلاح السياسى والاجتماعى فى روسيا على النمط الغربى .

وكانت هذه القصة فى جوهرها هى نفس القصة فى تركيا وقد بدأ السلطان سليم الثالث وهو رائد عملية التغريب الذى لم يصادفه النجاح — كما بدأ خليفته محمود الثانى وهو اكثر فاعلية وتأثيراً من سابقه — بدا كل منهما بإنشاء وحدات عسكرية مدربة على النظام الغربى وكان الضباط العسكريون الشبان من الأتراك يمثلون فى الثورة التركية التى شهدها عام ١٩٠٨ وهى الثورة الناجحه التى تقابل مثيلا لها ولكنها غير ناجحة واعنى بها ثورة روسيا عام ١٨٢٥ حيث الشبان يشكلون العنصر المحرك والقوى الدافعة فى هذه الثورة .

وفيما يتصل بموقف تركيا يبدو السبب واضحاً فى ظهور الضباط الشبان على مسرح الدعوة إلى حركة التغريب . فقد كان هدف الثورة التركية التى قامت عام ١٩٠٨ هو إعادة صياغة دستور عام ١٨٧٦ البرلمانى التركى على نمط غربى جديد

ولكن سرعان ما عارض السلطان الرجعى عبد الحميد الثانى هذا الدستور الجديد ورفضه ، فقد كانت الاستراتيجية السياسية عند هذا السلطان خلال ثلاثين عاما من حكمه المطلق لكى يتأكد من أن مبادىء حرية الرأى الغربية لن ترفع رأسها مرة ثانية فى تركيا هى أن يقضى على كل أشكال « الأفكار الهدامة » ويخمدها .

وأثناء حكم هذا السلطان وجدت الرقابة الشديده على الكتب كما وضعت السيطرة التامة على شئون التعليم غير أن الشىء الوحيد الذى يمكن أن نعتبره خروجا على المألوف من أسلوب حكمه وسياسته الرجعية وهو الحكم الذى سار على وتيرة واحدة ، هو تعليم طلبه الكلية الحربية التركية الخدمة الحربية على أسس فنية ، فقد كان السلطان عبد الحميد يخاف أشد الخوف من الثورة ولكنه فى نفس الوقت كان ذا فطنه حين أدرك أنه سيفقد امبراطوريته على نحو آخر إذا حدث ان انتصرت عليها مثلا دولة أجنبية ذات قوة عسكرية تفوقها إذا لم يمكن الطلبة العسكريين الأتراك من مسايرة برامج التقدم التى أحرزها الغرب فى ميدان العلوم العسكرية وحاول بالطبع أن يجعل تعليم هؤلاء الطلبة فنون العسكرية الغربية داخل أضيق حدود فنية ممكنة إلا أنه ما ان سمح لهؤلاء الطلبة الأتراك بأن يتعلموا اللغات الغربية لكى يدرسوا الكتب العسكرية الغربية فى نصوصها الأصلية حتى أصبح من المستحيل عليه أن يعزل بعد ذلك عقولهم عن الأفكار السياسية الغربية .

وهكذا غدا هؤلاء الطلبة العسكريون يشكلون فى تركيا خلال حكم السلطان عبد الحميد الطبقة التركية الوحيدة التى استطاعت أن تبقى النافذة العقلية مفتوحة أمام التأثيرات التى تهب من الغرب .

وهذا هو السر الذى جعل الشباب من الضباط العسكريين بمثابة رأس الحربة التى حملت الآراء الغربية إلى تركيا فى عام ١٩٠٨ بعد ثلاثين عاما من حكم استبدادى مظلم .

على أن ضرورة تغريب الجيش التركى — أى تحويله إلى جيش غربى فى مستواه الفنى وهى ضرورة اعترف بها رجل متطرف فى رجعيته مثل السلطان

عبد الحميد الثانى واعترف بها أيضاً من قبل — كما سبق ان ذكرنا — السلطان سليم الثالث صاحب العقلية المتحررة والرجل السيء الحظ صاحب العقلية إلا أن اعتراف هذا الرجل بها كان قبل حكم عبد الحميد الطاغية بمائه عام .

ولكن فى هذا الفصل الأول من القصة لم يكن حتى لدى هؤلاء المقتنعين بأهمية عملية التغريب فى تركيا حب صادق نحو الحضارة الغربية الأجنبية التى كانوا يعملون عامدين على إدخالها لأن هدفهم كان مجرد أخذ أقل جرعة ممكنة من الحضارة الغربية للابقاء على حياة رجل أوروبا المريض . وهذه الروح العدائية عند الأتراك تجاه الحضارة الغربية الأجنبيه كانت سببا فى أن يفشل كل إصلاح بعد آخر من الاصلاحات الغربية فى تركيا .

وكان حكم التاريخ على هذه المدرسة القديمة من الداعين إلى النظام الغربى فى تركيا هو أن «كل وقت كان أقل مما يجب وبعد ما كان يجب» ، فقد كان هؤلاء يأملون أن يجعلوا من تركيا دولة تستطيع أن تقف فى ميدان الحرب أمام دول غربية مثل النمسا أو أمام دول أخذت نفسها بالنظام الغربى مثل روسيا .

كانوا يأملون أن يجعلوا من تركيا هذا النموذج من الدولة بمجرد وضع الملابس العسكرية الرسمية الغربية فقط فوق أجساد الجنود الأتراك ووضع الأسلحة الغربية كذلك فى أيديهم وإعطاء الضباط الأتراك قسطاً وافراً من التدريب العسكرى الفنى الغربى ثم يريدون الابقاء بعد ذلك على كل مظاهر الحياة التركية التى تعتمد على اساس من تقاليدها الإسلامية الموروثة .

وكان السبب فى فشل هذه السياسة أى سياسة الأخذ بأقل جرعة من دواء تغريب تركيا — وكان مقدراً لها أن تفشل — راجعاً إلى ان هذه السياسة قد رفضت الحقيقة التى عمى عنها كذلك المصلحون العسكريون الأول من الأتراك وهى الحقيقة التى كان إدراك بطرس الأكبر لها وإيمانه بها دليلا على عبقريته وبراعته ، هذه الحقيقة هى أن اية حضارة اعنى أنها طريقة من طرق الحياة ،

هى كل متكامل لا يتجزأ تمتزج فيه كل الأجزاء ويعتمد كل منها على الآخر دون ما استقلال .

ولا نستطيع أن نقول ان سر تفوق الغرب مثلا على بقية امم العالم فى فنون الحرب ابتداء من القرن السابع عشر فصاعداً إنما يكمن فقط فى اسلحته وتدريباته العسكرية او فى تكنولوجيته المدنية التى انتجت المعدات العسكرية فلن يمكن فهم هذا السر دون أن نضع فى الاعتبار ايضاً كل عقلية وروح المجتمع الغربى فى ذلك العصر .

ولا شك فى ان فنون الحرب الغربية كانت دائماً ولا تزال مجرد جانب من جوانب طريقة الحياة الغربية ، ومن ثم فإن اى مجتمع اجنبى حاول أن يحصل على الفن دون أن يحاول أن يعيش ، فالمجتمع الذى يريد أن يأخذ عنه هذا الفن لا بد وأن يفشل فى إجادة هذا الفن بينما نرى على العكس أن أى ضابط عسكرى روسياً كان أم تركيا أم من اى بلد آخر غير غربى لم ينجح فى فنه الى المستوى الغربى العادى إلا بعد أن حصل على قدر من الحضارة الغربية أكثر مما هو موجود فى نصوص الكتب العسكرية وأكثر مما استفاده من العرض العسكرى .

والواقع أن أقل حل وهو الحل الذى دار حوله البحث طويلا للمسألة الغربية من جانب تركيا لم يكن حلا على الاطلاق . ذلك لأنه كانت هناك نهايتان بديلتان عمليتان للقصة فإما أن تدفع تركيا ثمن ما ارتكبته من خطأ حين أخذت أقل جرعة من دواء الحضارة الغربية ، وإما ان تنقذ نفسها من الانهيار بالتحول إلى النظام الغربى بكل عواطفها وعقلها وروحها وقوتها ، وبعد ان دفع الأتراك بأنفسهم إلى حافة الدمار حين فضلوا الأخذ بالطريقة الأولى رجعوا فأنقذوا أنفسهم — قبل أن يمضى الوقت — باندفاعهم اندفاعا عارما فى الأخذ بالنظام الغربى على نحو غير محدود وذلك تحت قيادة مصطفى كمال اتاتورك ، وكان اتاتوك هذا واحداً من هؤلاء الضباط الشبان الذين تشبعوا بالأفكار الغربية يوم ان كان يتلقى التعليم العسكرى الغربى اثناء الأيام الأخيرة من حكم

عبد الحميد . ومن ثم أسهم بدور فعال فى ثورة ١٩٠٨ وقد جاءت فرصة مصطفى كمال حين ضعفت تركيا نتيجة تحملها قسطاً فى الهزيمة التى لحقت بحليفتها المانيا فى الحرب العالمية الأولى .

ولقد كان لأتاتورك من الفطنة وبعد النظر ما جعله يدرك أن أنصاف الحلول فيما يتعلق بموضوع تخريب تركيا ، وهى السياسة التى كانت دائماً سببا فى إيقاع الكوارث بها ، ستكون اليوم من أخطر الاتجاهات التى يمكن أن تحل بتركيا ، كما كانت لأتاتورك أيضا شخصيته المتميزة التى مكنته من أن يحرك وراءه جموع الجماهير وحشودهم .

وكانت سياسته تهدف إلى تحويل تركيا تحويلا كاملا دون النظر إلى أية عقبة يمكن أن تقوم نحو الأخذ بطريقة الحياة الغربية . ولذلك بدأ فى عشرينيات القرن ينفذ فى تركيا ما يمكن أن يكون برنامجا يشبه فى ثوريته أى برنامج ثورى آخر تم تنفيذه فى أى بلد آخر من بلاد العالم قائم على نظم مرسومة وفى أقل وقت ممكن . وكانت هذه الثورة أشبه فى عالمنا الغربى بعصر الإصلاح وبعصر الثورة العقلية التى قامت على العلم الدنيوى فى أواخر القرن السابع عشر والثورة الفرنسية والثورة الصناعية وكأنها تجمعت كلها فى عمر واحد وفرضها القانون بقوته فقد اتخذت فى تركيا تشريعات خاصة بتحرير المرأة واستخدام الأبجدية اللاتينية بدلا من الأبجدية العربية الخ وذلك فى الفترة ما بين عامى ١٩٢٢ — ١٩٢٨ .

وقد قام بإحداث هذه الثورة دكتاتور أخذ يعمل عن طريق حزب واحد يتمتع باحتكار السلطة دون سواه ولعل هذه المكاسب كلها لم يكن من المستطاع تحقيقها بهذه السرعة العجيبة لو أن الأسلوب الذى استخدم فى تحقيقها كان أقل دكتاتورية من هذا ، وكان على تركيا خلال العشرينيات الأولى من القرن العشرين أن تختار بين أمرين فإما أن تقلب حياتها رأسا على عقب وتغير حياتها تغييراً شاملا وإما أن تستسلم للفناء ، وآثر الشعب التركى أن يبقى مهما كلفه ذلك

من تضحيات ، وكانت إحدى هذه التضحيات وجود فترة من الاستسلام والخضوع لحكم يتميز بطابع فاشي نازى شيوعى وإن كان نظام حكومة الحزب الواحد الدكتاتورى لم يصل إلى أقصى حدود التطرف الاستبدادى ، على أن ما حدث بعد ذلك على الرغم من هذا كان أمرا يلفت النظر وكان فى الوقت نفسه أمرا متوقعا . فقد انتقلت تركيا أثناء انتخاباتها العامة التى أجريت عام ١٩٥٠ من نظام حكم الحزب الواحد إلى نظام حكم الحزبين ، بمحض رضا الشعب واختياره دون أى عنف وبدون إراقة أية قطرة من دمائه وقبل الحزب الذى ظل يحتكر الحكم فى تركيا فترة طويلة من الزمن — قبل إرادة الناخبين حين رأى ان رجحان اصوات المنافسين يعنى ظهور إشارة له بأن ينسحب باعتباره الحزب الحاكم من على مسرح الحكم ليدع مكانه للمعارضة بدلا منه واظهرت المعارضة من جانبها روحا دستورية مماثلة فلم تسىء استخدام سلطتها باتخاذ اية إجراءات انتقامية ضد منافسيها الذين احترموا نتائج الانتخابات الحرة وافسحوا الطريق عن طواعيه لهؤلاء الذين كلل النصر هاماتهم فى معركة الانتخاب .

ويبدو كما لو ان النظم الغربية للحكم الدستورى البرلمانى قد تأصلت فى تركيا وهى التى حاول رجال السياسة فيها خلال عدة اجيال ألا يتأثروا بالغرب إلا فى ميدان فنونه العسكرية فقط . وما دام الأمر كذلك — أى تأثر تركيا بالغرب فى اكثر من ميدان الفنون العسكرية — فإن هذا يعنى وجود نصر ملحوظ لمعنى العدالة والاعتدال فى ميدان السياسة ، وهو المعنى الذى نعتقد نحن معشر الغربيين بأنه احدى الهدايا الطيبة التى إستطاع الغرب ان يقدمها للعالم .

وقد راينا ابتداء من عام ١٩١٧ ان كثيرا من الشعوب التى لم تأخذ إلا بجزء من الديموقراطية او التى كانت ديموقراطيتها ديموقراطية اسمية فقط ، راينا كيف ان هذه الشعوب قد ضلت طريقها فوقعت اسيرة أشكال متعددة من اشكال الحكم الاستبدادى .

وعلى الرغم من أن بعض هذه الشعوب كالشعب الإيطالى والألمانى مثلا يعتبران من أعضاء الأسرة الغربية الأصلية إلا أنهما لم يأخذا بما تقضى به حضارتنا الغربية وهكذا نستطيع أن نعتبر أن انتصار الروح الدستورية الغربيـــة فى الانتخابات التركية التى أجريت عام ١٩٥٠ إنما تمثل معلماً من معالم الطريق التى قد ترمز إلى تحول المد السياسى فى العالم بصفة عامة .

وبجانب ذلك توجد بالطبع أفكار ونظم غربية أخرى مشكوك فى صحتها وفى مدى ما يمكن أن تؤديه من خير ، ولا شك فى أن فكرة القومية الغربية عندنا واحدة من هذه الأفكار .

وقد تأثر الأتراك ، كما تأثر عدد كبير من الشعوب الإسلامية الأخرى بعدوى فكرة القومية هذه ، وكان تأثرها بها تأثراً قوياً يشبه تأثرهم ببعض أفكار غربية أخرى منها ماهو نافع ومفيد ومنها ماهو ضار وخطير . وهنا نتساءل : ماذا ستكون نتيجة إدخال مثل هذه المثل السياسية الغربية التى لا تلقى حماساً كبيراً فى العالم الإسلامى الذى تنص تقاليده السلفية على أن جميع المسلمين إخوة بفضل ما بينهم من دين مشترك بصرف النظر عن اختلاف الجنس واللغه والعادات .

غير أن هذه التقاليد الإسلامية التى تدعو إلى إخوة الإنسان فى عالم قضى التقدم التكنولوجى الغربى فيه على عنصر المسافة المكانية والذى تتنافس اليوم على أرضه طريقتا الحياة الغربية والروسية لإخضاع البشرية كلها لواحدة منهما ، هذه التقاليد الإسلامية التى تنادى بإخوة الإنسان يبدو أنها ستكون المثل العليا التى تعتبر أفضل بالنسبة لتلبية حاجات العصر الاجتماعية من التقاليد الغربية التى تنادى بوجود استقلال ذى سيادة لمجموعة من قوميات منفصلة بعضها عن بعض . وفى هذا الموقف الجديد الذى نجد الغرب نفسه فيه منذ الحرب العالمية الثانية ، وقد تقسم داخلياً إلى حوالى أربعين دولة قومية كل منها ذات سيادة مستقلة ، فى هذا الموقف يجد هذا المجتمع نفسه مهدداً بسقوط منزله الذى

انقسم على نفسه إلا أن مكانة الغرب اليوم فى العالم لا تزال مكانة ينظر إليها باحترام وتجلة مما يجعل عدوى مرض القومية عنده تنتقل منه إلى غيره .

ولكن هناك أملا فى أن توقف قوة الشعور الإسلامى وإيمان المسلمين بتقاليدهم التى تدعو إلى وحدة الانسان انتشار هذا الوباء السياسى الغربى داخل العالم الاسلامى على الأقل . ولا جدال فى أن الوحدة الاجتماعية والسياسية على المستوى العالمى قد أصبحت اليوم أكثر ضرورة واهمية بالنسبة لنا كبشر وبالنسبة لإنقاذ حياتنا ووجودنا فى هذا العصر الذرى مما كانت عليه فى أى وقت مضى .

لقد أدى الشعب التركى بلا شك فى ظل أتاتورك إلى العالم الإسلامى كله خدمة جليلة حين حاول حل «المسألة الغربية» باتخاذه طريقة الحياة الغربية الحديثة دون أى تحفظ ، بما فى ذلك نظام القومية وغيره من النظم الغربية الأخرى ولكن الدول الإسلامية الأخرى لا تحتاج بالضرورة إلى اقتفاء اثر الرواد الأتراك اقتفاء حرفياً .

فهناك مثلا دول إسلامية تتحدث اللغة العربيةوهى دول تسودها لغة مشتركة تتعدد لهجاتها ، ولكنها تكتب بلغة فصحى ذات مستوى أدبى واحد وتمتد من الشاطىء الأطلنطى فى مراكش إلى الحدود الغربية فى إيران ومن حلب والموصل شمالا إلى الخرطوم وعدنومسقطوزنجبارجنوباً.ويتم توزيع الكتب والصحف التى تنشر فى القاهرة ودمشق وبيروت فى كل هذه المنطقة الفسيحة بل وفى غيرها لأن العربية تعتبر لغة الدين حتى فى الدولة الإسلامية التى لا تعد اللغة العربية فيها لغة الحياة اليومية .

وهنا نريد أن نتساءل . هل من الضرورة حقاً ان ينقسم العالم الذى يتحدث اللغة العربيـــة كما انقسمت الامبراطورية الأسبانية السابقة لسوء الحظ فى الأمريكتين ــ فنقول هل من الضرورى ان ينقسم هذا العالم إلى حوالى عشرين

دولة قومية مستقلة تعيش فى اجزاء كبيرة مترابطة ترابطاً شديداً كما حدث فى الغرب .

إن هذا هو الجانب العكسى لحضارتنا الغربية الذى كان من المحزن فعلا بالنسبة للشعوب التى تتحدث العربية ان تأخذ به بكل حرفيته .

ثم تبقى بعد ذلك عند جميع اطراف العالم الإسلامى فى افريقيا الاستوائية وفى الهند ، والصين والاتحاد السوفيتى . . . تبقى الأقليات الإسلامية متناثرة بين اغلبيات غير إسلامية وهذه الأقليات لن تستطيع ان تجمع كل اعضائها فى تكتلات متماسكة جغرافياً حتى تتمكن من تشكيل دول متعددة كل منها ذات سيادة مستقلة وهذه الأقليات الإسلامية المتناثرة والتى يقدر عدد افرادها بملايين كثيرة ليست — كما سنرى — جاليات الأقلية الوحيدة من نوعها .

ولا يعتبر انجيل نوبه القومية الغربية بالنسبة لجاليات متناثرة مثل هذه الجاليات دعوة إلى حياة جديدة بل هو حكم بالإعدام عليها . ولنأخذ حالة الجالية الإسلامية الكبيرة التى تعيش هنا وهناك على شبه القارة الهندية فقد حدث فى عام ١٩٤٧ حين انسحبت بريطانيا من الهند — حدث لسوء الحظ ان الروح الغربية للنظام القومى لم تتبع أنموذج الطيب الذى وضعه ممثلو الدولة الغربية المعينة التى ادخلت الأيديولوجية الغربية إلى الهند . فقد بقى نظام قوميتنا الغربية فى الهند بعد مغادرة الإداريين البريطانيين بقى ليجعل من شبه القارة الهندية المتحدة دولتين متنافرتين : دولة هندية هندوكية واخرى باكستانية مسلمة .

وهذا الانقسام او التصدع كان لسوء الحظ كارثة اصيب بها شبه القارة فالاتحاد الهندى الهندوكى شيء اقل من الهند المتحدة والباكستان دولة تتكون من بقايا طائفتين قسمت كلا منهما عن الآخر مساحة الاتحاد الهندى كله . وحتى بعد عملية « الغربلة » وجد الملايين من الهندوس والمسلمين الهنود انفسهم يعيشون فى مكان غير طبيعى من الحدود الجديدة كما وجدوا انفسهم أمام اختيار حرج فإما أن يتركوا بيوتهم واما أن يعيشوا تحت حكم حكومة لا تكن لهم حبا ولا عطفا .

وللباكستانيين اليوم دولة قومية خاصة بهم ذات مساحة واسعة مكتظة بالسكان إلا ان على هؤلاء المسلمين الهنود ان يدفعوا ثمنا لهذا الوضع اغلى مما دفعه الأتراك فإن هؤلاء الباكستانيين قد اكتشفوا بعد ان مروا بالتجربة عاقبة اتباعهم نظامنا الغربى فيما يتعلق بمسألة الأفكار القومية كما اكتشفوا كذلك عيوبها ومشاكلها .

وهكذا تعلم الباكستانيون كما تعلم الأتراك الدروس السياسية التى كانت لها قيمة لا بالنسبة للشعوب الإسلامية فحسب بل بالنسبة ايضا للعالم ككل .

الفصل الثالث

الهند والغرب

فى صراع الهند مع الغرب واحتكاكها به ظهرت تجربة لم يشارك الهند فيها أى مجتمع آخر من مجتمعات العالم . لأن الهند فى حد ذاتها عالم متكامل يشبه فى ضخامته وأهميته عالمنا الغربى . وهى — أى الهند — المجتمع الشاسع الوحيد غير الغربى الذى لم يتعرض فقط لهجوم الأسلحة الغربية أو ضربها له بل غمرته هذه الأسلحة وتغلبت عليه تغلباً شاملا ولم تنتصر عليه هذه الأسلحة ويخضع لها فقط ، بل حكمته بعد ذلك جماعات من الإداريين الغربيين واستمر هذا الحكم الغربى فى البنغال قرابة مائتى عام ، كما استمر فى البنجاب فترة تجاوزت المائة .

ولذلك كانت تجربة الهند مع الغرب تجربة مريرة ومهينة أكثر من تجربة الصين أو تركيا معه بل وأكثر كثيراً من روسيا أو اليابان معه أيضا .

ولكن — الهند نظراً لهذا السبب نفسه — كانت أقرب اتصالا وأقوى ألفة مع الغرب وكانت الاتصالات الشخصية بين الهند وبين الغربيين أكثر إلى حد كبير من الاتصالات الشخصية بين شعوب الدول السابقة وبين الغربيين . دليل ان تأثير الغرب قد تسلل إلى روح الهند أعمق من غيرها .

وربما لم تكن الهند لتتعرض للهزيمة التى تلقتها على يد الأسلحة الغربية لو لم تكن قد تعرضت من قبل لهزيمة أسلحة المغول لها . فلقد عرف القارىء سلفا أن المغول قد وصلوا إلى الهند قبل سنوات قليلة من وصول البرتغاليين لأول مرة إليها عام ١٩٤٨ . وهؤلاء البرتغاليون يمثلون أول موجة من موجات البحارة الغربيين .

والمغول المسلمون قد كانوا أسبق من الغربيين البريطانيين فى أن يجعلوا من الهند كلها تقريباً دولة تعيش فى ظل حكومة واحدة . على أنه ربما لم يكن لفترة سلام عهد المغول فى الهند نفس الفاعلية والأثر الذى كان للسلام الذى جاء به البريطانيون فى أحسن فتراته وهم خلفاء المغول فى الهند ولكن هذا السلام فى عهد المغول قد استمر نفس الفترة الطويلة التى استمرها السلام فى عهد البريطانيين . حتى إذا ما تحطم هذا السلام المغولى وانهار فى غضون القرن الثامن عشر خلف وراءه أشياء سهلت على من أتى بعدهم من البريطانيين عملية لم شتات هذه الامبراطورية المغولية . فقد استمر مثلا نظام الإدارة الخاصة بجباية ضرائب الأرض ، استمر بقوة الدفع خلال فترة الفوضى التى سادت الهند فى القرن الثامن عشر .

وقد ظل هذا النظام قائماً لأنه أصبح جزءاً من صميم عادات الهند وتقاليدها وكان تكييف الهنود عقولهم وأرواحهم — للعيش بقوة العادة داخل امبراطورية فرضها عليهم أجانب — كان هذا أيضاً من غير شك من بين الأشياء التى أحدثها المغول فى الهند ثم ظلت قائمة بعدهم ليستفيد منها البريطانيون بعد ذلك .

ولقد حكم البريطانيون الذين خلفوا المغول فى الهند على نظام حكم هؤلاء المغول الذى كان قائماً حتى ذلك الوقت — حكموا عليه بأن يلفظ آخر أنفاسه ، وذلك حين عمدوا إلى القيام بتغيير هذه العادات التى غرسها المغول فى عقول الهنود . وفى ثلاثينيات القرن التاسع عشر فتح حكام الهند البريطانيون نافذة للعقول الهندية كى تطل منها على الغرب وذلك حين استبدلوا بالثقافة الهندوكية ثقافة غربية ومن ثم أتاحوا الفرصة أمام الهنود لكى يتعرفوا على أفكار حكامهم الانجليز التى تطبق فى بريطانيا نفسها وهى الأفكار الخاصة بالحريات وأسلوب الحكم الدستورى البرلمانى ومذهب القوميات . وتأثر الهنود بهذه التربية السياسية أيما تأثر . فدفعهم ذلك إلى أن يطالبوا من بحرية بلادهم كما دفع بريطانيا كذلك فى النهاية إلى التسليم لهم — بنظام الحكم الذاتى الذى يتمتع به الانجليز داخل بلادهم .

واليوم نرى الهندوكيين الذين يحكمون الاتحاد الهندى بعد البريطانيين كما نرى المسلمين الذين يحكمون باكستان بعد البريطانيين نرى هؤلاء جميعاً يحكمون شبه القارة على النمط الذى كان أسلافهم من البريطانيين يحكمون به بريطانيا منذ عام ١٦٨٨ .

ولعل مما يسترعى الملاحظة والاعتبار هنا هو ان الحكام الهندوكيين الذين يحكمون اليوم الجزء الأكبر من شبه القارة كانوا سيفضلون كما قبلوا تطبيق نظام الحكم على النمط الغربى الذى وضعه أساسا الغزاة الأجانب . وهكذا حدث لأول مرة فى تاريخ الهند منذ بداية الفتح المغولى لها ، أى منذ ثمانمائة وتسعمائة عام (أن يصبح الهندوكيون سادة بلادهم داخل المناطق التى يشملها الاتحاد الهندى اليوم) . وحين كان الحكم المغولى فى الهند يلفظ آخر أنفاسه فى خلال القرن الثامن عشر مرت لحظات كان يبدو فيها كما لو أن إقامة دولة هندوكية تخلف الحكم المغولى مباشرة أمر وشيك الوقوع .

وفى فترة التدافع من أجل الحصول على ميراث المغول فى القرن الثامن عشر بدا كما لو أن دولة المارثا الهندوكية على وشك أن تستأثر بنصيب الأسد من أسلاب المغول . وهذه المحاولة التى شهدها القرن الثامن عشر وأعنى بها محاولة نقل سلطة الحكم التى كانت فى أيدى المغول إلى أيدى المارثا الهندوكى لم يقيض لها النجاح نتيجة تدخل الغربيين الذين كانوا أكثر قوة . وبالرغم من ذلك فإن إقامة حكم بريطانى فى الهند بدلا من حكم مارثى لم يوقف حركة البعث واليقظة التى سادت الهندوكيين داخل بلادهم .

وحين انتهت السياسة العسكرية التى انتهجتها حركة البعث الهندوكية فى القرن الثامن عشر إلى هزيمة عسكرية انحرف تيار الطاقة الهندوكية إلى اتجاه آخر . وأخذ الهندوكيون أثناء الحكم البريطانى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، كما كان الحال أيضاً أثناء فترة الانتقال من حكم المغول إلى حكم البريطانيين — أخذ هؤلاء الهندوكيون على الدوام يكسبون كل يوم قوة ونفوذاً فى الهند ، إلا أنهم استطاعوا ان يكسبوا هذه القوة فعلا فى ظل الحكم البريطانى لا بقوة السلاح

جل بفضل قوة إجادتهم للأسلوب الغربي فى ميادين التربية والإدارة والقانون وهى العناصر التى كانت تمثل مفاتيح القوة فى عالم أخذ يصطبغ بالنظام الغربى .

وكان الهندوس أسرع من المسلمين فى أن يلاحظوا وينتهزوا الفرص التى أتيحت أثناء العصر الغربى فى تاريخ الهند أمام الهنود الذين أصلوا فنون السلام على نحو فعال . فالهندوكيون — وهم فى ذلك يختلفون عن المسلمين — لم تكن ذكرياتهم عن القوة والمجد اللذين انتهى عهدهما حديثاً من نوع الذكريات التى تثبطهم بحيث تجعلهم يطيلون التفكير والتأمل — بلا جدوى — فى ماض انتهى ومات بدلا من التفكير فى المستقبل . ولذلك فإن ميزان القوى الذى بدأ يميل فى غير صالح المسلمين خلال القرن الثامن عشر بما فيه من فوضى قد ظل كذلك فى غير صالحهم خلال القرنين التاسع عشر والعشرين أثناء فترة السلام البريطانى التى اهتمت بالقدرات الفكرية بدلا من القوة العسكرية كوسيلة من وسائل التفوق فى الصراع المستمر بين الهندوس والمسلمين الهنود الذين كانوا فى ذلك الوقت أشبه برعايا التاج البريطانى .

واضطر الهنود المسلمون فى النهاية إلى اقتفاء أثر اخوانهم الهندوكيين فاتجهوا هم الآخرين إلى العمل على إجادة فنون الحضارة الغربية ، غير أن المسلمين الهنود أصروا حين أصبح تصفية الحكم البريطانى فى الهند قاب قوسين أو أدنى ، على أن انتقال حكم الهند من أيدى البريطانيين إلى أيدى الهنود يجب أن يصاحبه تقسيم الهند إلى دولتين إحداهما مسلمة والأخرى هندوكية . وكان هذا الإصرار على التقسيم من جانب المسلمين إنما يعنى اعترافاً بحقيقة هى إنه كان يوجد منذ أيام المغول العظام اضطراب فى الهنود داخل دولة إسلامية هندوكية مشتركة تضم شبه القارة كلها — كانوا يخافون من أن تطغى عليهم الأغلبية الهندوكية من السكان .

وعلى الرغم من أن الباكستان التى يسودها المسلمون قد انفصلت عن الاتحاد الهندى الذى يسوده الهندوكيون فى عام ١٩٤٧ فإن هدف كل هاتين الدولتين اللتين خلفتا الامبراطورية البريطانية فى الهند يكاد يكون واحداً . فى المرحلة الأولى من تاريخ كل منهما بعد الانفصال تركزت السلطة فى كلتا الدولتين فى

أيدى العناصر الوطنية ذات — التربية والثقافة الغربيتين والتى تستلهم دائماً فى حياتها مثلا غربية . ولو بقيت هذه العناصر الهندوكية والباكستانية وكذلك السيلانية تتحكم فى السلطة داخل بلادها لكنا قد رأينا رجال السياسة فى هذه الدولة الآسيوية يستخدمون نفوذهم على مواطنيهم لإقناعهم بأن يظلوا أعضاء داخل أسرة عالمنا الحر . ولا شك — كذلك — فى أن نفس هؤلاء الساسة الاسيويين سيظلون يطالبون بألا يكون فى العالم الحر الذى سيصبح وطناً مشتركاً لكل من الشعوب الغربية والآسيوية تمييز ظالم كريه ضد الأعضاء الآسيويين فى الأسرة ، وعلينا معشر الأعضاء الغربيين أن نؤكد هذا المعنى للأعضاء الآسيويين إذا كنا جادين فعلا وصادقين فى تسمية عالمنا بالعالم الحر .

ولو لم نفشل نحن أعضاء العالم الحر الغربيين فى أن نكون مخلصين لمبادئنا فى الحرية التى أعلناها لكان هناك أمل فى أن نرى حكام الهند وباكستان وسيلان وهم الذين تدربوا على النظم الغربية وأصبحت لهم عقليات غربية — أقول كان هناك أمل فى ان نرى هؤلاء حريصين على مشاركتنا ومزاملتنا فى اسرة واحدة . وقد حدث من سنين فقط من الحركة التى قامت بها بريطانيا لتسوية مشاكل آسيا مع الغرب حين اتمت عملية تصفية الحكم البريطانى فى كل مكان من سيلان وباكستان والاتحاد الهندى وبورما ، حدث ان انتقل الصينيون الذين يمثلون الربع الثانى من الربعين الآسيويين من الجنس البشرى من المعسكر الغربى إلى المعسكر الروسى .

ولو ان عالمنا الغربى بعد ان فقد شبه القارة الصينية قد فقد كذلك صداقة شبه القارة الهنديه لكان الغرب قد ضاع منه لصالح روسيا معظم العالم القديم فيما عدا رأس جسر فى كل من اوروبا الغربية وافريقيا .

وقد يكون هذا حداً حاسماً فى الصراع الذى يقوم اليوم من اجل القوة بين العالم الحر وعالم الدول الشيوعية . ولا شك فى ان الاتحاد الهندى الذى يضم معظم شبه القارة الهندية يمثل قاعدة قوية فى العالم المنقسم اليوم وهو العالم الذى

تتنافس فيه الولايات المتحدة وحلفاؤها مع الاتحاد السوفيتي وحلفائه من اجل كسب السيطرة العالمية .

ونحب ان نتساءل الان ، ولتساؤلنا مبرراته ، إلى اى اتجاه سيميل الهندوكيون الذين يمثلون خمس عدد الجنس البشرى ؟ والإجابة على هذا السؤال او التساؤل تقتضينا ان ندرس اولا بعض الاعتبارات التي تؤكد احتمال استمراره اتجاه الهندوس وجهتنا الغربية او تنفى ذلك .

ولنأخذ الجانب المأمول اولا فالأمر يبدو اليوم وكأن العلاقات الشخصية بين الهنود والغربيين قد اصبحت اكثر قرباً ووداً مما كانت عليه من قبل. فكثير من ابناء المملكة المتحدة لا بد وأنهم مروا — كما مر المؤلف — كثيراً منذ عام ١٩٤٧ بهذه التجربة وهى دهشتهم وتأثرهم بروح الصداقة التى يبديها الهنود للشعب البريطانى.

وقد حدث هذا معى شخصياً عدة مرات فى دول اجنبية حيث كان المراقبون المحليون يشاهدون مدى ما اصبحت عليه العلاقات الهندية البريطانية الآن . وقد وجدت كثيراً من الجنود الذين يتمتعون بمكانة ممتازة فى دول اجنبية يظهرون من الروح الطيبة ما يدل على ان العداء البغيض السابق بينهم وبين البريطانيين قد انتهى الان من جانبهم .

وعندما وفت بريطانيا بوعدها وفاء كاملا فيما يتعلق بتصفية حكمها فى الهند دهش الهنود لأنهم ربما كانوا غير واثقين تماما من أن بريطانيا تنوى الوفاء بوعدها فى يوم من الأيام بالنسبة للهند . ولذلك ظهر تحول فى شعور الهنود من العداء إلى الصداقة حين اكدت بريطانيا مدى حرصها على المحافظة على كلمتها التى قطعتها على نفسها ، وكان رائعاً من الهنود ان يظهروا بوضوح صداقتهم الجديدة للبريطانيين وهذا التغيير الطيب فى علاقات كل من الهنود والبريطانيين بعضهم تجاه بعض يعتبر من غير شك كسباً بالنسبة للعالم الحر كله .

وعلينا أن نؤكد هنا أن العداء بين الهند وبين العالم الغربى الذي كانت تمثله

بريطانيا بالنسبة للهند إنما يرجع إلى تاريخ أبعد من تاريخ بداية حركة الاستقلال الهندية بل وإلى أبعد من تاريخ الصراع الدامى الذى شهده عام ١٨٥٧ فهو يرجع إلى تاريخ الفترة التى قام فيها البريطانيون بالاصلاحات الإدارية فى الهند فى ثمانينيات القرن الثامن عشر ويعتبر ظهور هذا العداء فى العلاقات بين الهنود والشعب البريطانى نتيجة لهذه الاصلاحات واحداً من مهازل التاريخ وسخرياته غير أن هناك ارتباطا عميقا وأصيلا بين الحادثتين فإن حكام الهند البريطانيين الذين كانوا لا يزالون حديثى العهد فى القرن الثامن عشر بالهند كانوا أحرارا ومتساهلين مع رعاياهم الهنود الجدد حرية وتساهلا لهما معنيان فقد كانوا لا يرعون ذمة فى استخدام سلطتهم السياسية لنهب الهنود واستعمال الظلم معهم وكانوا فى الوقت نفسه غير ممنوعين ولا محرما عليهم الاتصال بهؤلاء الهنود فى جو من العلاقات الاجتماعية فقد كانت لهم اتصالاتهم برعاياهم الهنود خارج ساعات العمل فضلا عن التقائهم بهم أثناء العمل فى ظل قواعد مختلفة .

وفى القرن الثامن عشر كان المستوطنون البريطانيون الذين يعيشون فى الهند ممن يتميزون عن غيرهم بأنهم أكثر وعيا وثقافة وكان هذا الفريق يستمتع مع زملائه من الهنود بهواية التعارض بالشعر الفارسى . كذلك كان الهنود الذين هم أكثر حيوية ونشاطا يحسون بالمتعة الكبيرة حين يتعرفون على فنون الرياضة الانجليزية .

وإذا ما تطلعنا إلى صورة زوفانى « مباراة الديكة » التى أقامها كولونيل مور دانت فى لوكناو ، إذا ما تطلعنا إلى هذه الصورة التى رسمها زوفانى عام ١٧٨٦ رأيناها تقص على من يشاهدها لأول وهلة كيف كان اللقاء طيبا بين الهندي والبريطانى فى ذلك الوقت فلقد كان الحكام البريطانيون فى الهند أثناء الجيل الأول يسلكون إلى حد كبير نفس السلوك الذى كان عليه الهندوس والمسلمون السابقون . فقد كان فى هؤلاء البريطانيين عيوب البشر ومن ثم لم يحيوا فى عزلة الآلهة ، ولكن حين عزم المصلحون البريطانيون الذين قاموا بإصلاح الحكم البريطانى فى الهند ، وهم الذين قرروا القضاء فعلا على الفساد ونجحوا فى هذه

المهمة الصعبة ، حين عزم هؤلاء المصلحون على تحقيق هذا البرنامج الاصلاحى عمدوا فى الوقت نفسه إلى القضاء على مظاهر الود والالفة بين البريطانيين والهنود لأنهم رأوا أنه لا يمكن اقناع البريطانيين بأن يكونوا فوق مستوى البشر من حيث الاستقامة والعدالة فى معاملتهم مع رعاياهم الهنود مالم يشعروا ويسلكوا سلوك الآلهة مع الهنود الذين هم أدنى منهم مرتبة وشأنا .

واليوم وبعد أن أصبح الهنود يحكمون أنفسهم بأنفسهم لم يعد ثمة وجود لمشكلة اللورد كورنيلز « KORNILLIS » التى كانت تنحصر فى البحث عن طريقة تجعل الاداريين الغربيين فى الهند يسلكون سلوكا طيبا — بعد أن حدث ذلك ، لم يعد يوجد شيء يمنع العلاقات بين الهنود والغربيين من أن تصبح علاقات وثيقة طيبة فى نفس الوقت وهذا هو التغيير المتوقع إلى أحسن بقدر ما أمكن أن يكون ولكن إلى أى مدى يمكن أن يسير هذا التغيير ؟

آلاف قليلة من ٤٥٠ مليون هندى قد التقت أو تلتقى بالرجل الغربى أو حتى تلتقى بعدد من القلة الهندية التى تأثرت عقليتها بالفكر الغربى والتى تحكم الهند اليوم بدلا من الحكام البريطانيين . فما هو مستقبل هذه الطبقة الحاكمة الهندية الجديدة ؟ هل ستستطيع أن تحافظ على زعامتها التى تحتفظ بها الآن ؟ وهل ستستطيع المثل الغربية التى تأصلت فى نفوس الأقلية عن طريق التعليم ... هل ستستطيع أن تحافظ على وجودها أمام التقاليد الهندوكية ؟

إن من الملاحظ أن أية أقلية تعيش فى العالم الهندوكى الكبير كانت ستسير إلى المدى الذى سارت إليه هذه الاقليه الحاكمة فى هضم الأفكار والمثل الغربية فى الوقت الذى تدرك فيه ما بين وجهتى النظر الغربية والهندوكية من اختلاف فيما يتعلق بطريقة الحياة عند كل منهما .

ولقد تناولنا فى الفصلين السابقين من هذا الكتاب وهما الفصلان اللذان عالجنا فيهما موضوع علاقة كل من روسيا والعالم الاسلامى بالغرب . تناولنا حالتين كان للجانب غير الغربى الذى احتك به الغرب عنصر أشترك فيه مع الغرب وهو عنصر لم يتوفر وجوده عند الهندوكية .

فعلى الرغم من أن معاصرينا من الروس ليسوا أبناء المسيحيين الغربيين إلا أنهم أبناء للمسيحيين الارثوذكس الشرقيين ولذلك فإن كلا من الدين المسيحى والحضارة الاغريقية الرومانية وهما اللذان تسلمتهما الكنيسة المسيحية وحافظت عليهما ثم اسلمتهما إلى الأجيال القادمة هذا الشيئان يعتبران جزئين فى الأساس الروحى لدى الروس كما هما بالنسبة للغربيين كذلك فإن معاصرينا المسلمين هم أتباع دين يمكن ان يوصف بأنه كان حركة إصلاح للمسيحية المترمته فى عصره وتمثل الفلسفة والعلم الاغريقيين فيه عنصران من عناصر أسسه المعنوية تماما كما هو الحال عند الغرب .

والواقع ان الإنسان إذا نظر إلى العالم المعاصر ككل وحاول ان يجرى اوسع تحليل وادقه للأقسام الحضارية الأساسية فيه فسيجد نفسه يجمع المسلمين والمسيحين الأرثوذكس وكذلك المسيحيين الغربيين يجمعهم كلهم كأعضاء لمجتمع كبير واحد ، وهذا المجتمع الذى يستطيع الإنسان ان يميزه عن العالم الهندى وعالم الشرق الأقصى بلا فئة خاصة به ، ولما كان التراث الرحى لدى كل من المسلمين والمسيحين تراثا مشتركا فإن من السهل ان يضع المجتمع المسيحى الإسلامى لافئة خاصة به تميزه عن المجتمع الهندوكى فى الهندوعن المجتمع البوذى الكونفشيوسى فى الشرق الأقصى .

وبهذه النظرة التى تضع الجنس البشرى كله فى الاعتبار يكاد يختفى من أفقها ذلك التنوع المختلف بين المسلمين والمسيحيين فيما يتعلق بطريقة الحياة المشتركة بينهما . لأن هذا التنوع فى طريقة الحياة بينهما يبدو قليل الأهمية جدا إذا قورن بالخصائص التى يشترك فيها أعضاء أسرة حضارية واحده ، وأعنى بهذه الأسرة المسلمين ، وحين نقابل طريقة الحياة المسيحية — الاسلامية ككل بطريقة الحياة الهندوكية أو بطريقة الحياة لدى شعوب الشرق الأقصى فإننا لا نكاد نرى اختلافات داخل الأسرة المسيحية — الإسلامية بين مسيحية الأرثوذكس الشرقيين والمسيحية الغربية ، أو بين هاتين المسيحيتين والإسلام

ولكننا نعرف أن هذه الفروق الحضارية الصغيرة نسبيا تستطيع أن تؤدى إلى وجود قلق روحي عنيف فى نفوس أبناء واحدة من هاتين الحضارتين الشقيقتين وذلك حين تتعرض هذه النفوس لدعاية روحية تقوم بها الشقيقة الأخرى فى هذه الأسرة الواحدة .

ولعل التأثير الذى أحدثته الحضارة الغربية فى نفوس الروس منذ عهد بطرس الأكبر يعتبر مثلا واضحا لذلك وكل منهما يمثل عضوا فى أسرة حضارية واحدة وفى استطاعتنا أن نقدر مدى عنف التأثير الغربى على نفوس الروس سياسيا بانفجار الثورة التى وقعت عام ١٩١٧ وفيها ذابت حدة التوتر الروحى من تلقاء نفسها .

وعلى هذا نستطيع أن نقول إن هذا القلق الذى جاء نتيجة لتأثير الغرب على نفوس الروس والذى بدأ فى هذه المظاهر العاطفية يعتبر من غير شك — أكثر اعتدالا وهدوءاً من القلق الخفى المستور الذى أحدثته نفس هذه القوى الروحية الغربية الأجنبية على نفوس الهنود . هذا القلق الذى حدث بين الهنود قد خفف من حدته وعنفه عند الروس وجود عناصر اغريقية فى تراثهم الفكرى ، وهى العناصر التى تشترك فيها مع الحضارة الغربية الدخيلة بينما لا توجد مثل هذه العناصر فى التراث الهندوكى ، لأن تراثهم ينتمى إلى أسرة حضارية مختلفة على عكس الروس والغربيين اللذين ينتمون إلى حضارة واحدة وهنا نتساءل ماذا يمكن أن يكون مصير هذا التوتر العنيف الحاد فى الهند بين القوى الروحية الأجنبية عليها وبين قواها الروحية الهندوكية ؟

الواضح كما هو ظاهر أن هؤلاء الهندوس الذين اقتبسوا حضارتنا الغربية فى شيء من التطرف عن طريق التكنولوجيا والعلم واللغة والأدب والنظم الإدارية والقانونية ، الواضح أنهم قد كانوا أكثر نجاحا من الروس فى التوفيق بين طريقة حياتهم القومية وبين طريقة الحياة الغربية التى تعتبر أجنبية عليهم أكثر من الروس . ولكن الحدة والضعف والتوتر فى نفوس الهندوس لابد

وأنها أكثر شدة . وسواء أكان اليوم أو الغد فإنها ستجد لنفسها طريقا تذوب من خلاله ، ومهما يكن الخلاص الذى يسعى الهندوكيون لتحقيقه لأنفسهم فى النهاية فإنه يبدو واضحا انه لا يمكن ان يكون خلاص أنفسهم من تأثير الحضارة الغربية . هو أن يفتحوا أبوابهم لنفوذ الشيوعية وتأثيرها لأن الشيوعية وهى كما سبق أن قلنا إنحراف غربى انتهجته روسيا المسيحية الأرثوذكسية السابقة هذه الشيوعية جزء لا يتجزأ من التراث الإغريقى كما هو الحال بالنسبة لطريقة الحياة الغربية فكل هذه التقاليد الحضارية تقاليد أجنبية على الروح الهندوكية .

على أن هناك عاملا يتمثل وجوده اليوم فى وضع الهند الاقتصادى والاجتماعى وهو عامل قد يفتح ثغرة فى حصن الهند أمام التغلغل الشيوعى ، هذا العامل الخطير هو تزايد ضغط عدد السكان فى الهند وعدم تناسب ذلك مع وسائل الحياة الضرورية فيها . وهذا أمر على جانب من الأهمية لأن نفس هذا العامل موجود أيضاً اليوم فى الصين واليابان والهند الصينية وأندونيسيا وبلاد أخرى فى منطقة الشرق الأوسط . ولقد أحدث تأثير الغرب فى كل هذه البلاد غير الغربية زيادة تقدمية فى الثروة الغذائية بفضل عمليات الرى وإدخال المحاصيل الجديدة وتطوير وسائل الزراعة . وهذه الزيادة فى الثروة الغذائية فى كل هذه البلاد وفى كل مرحلة من مراحل حياتها لم تنفق على رفع مستوى معيشة السكان المتزايدين تزايداً ثابتا أو تدريجيا بل أنفقت على إبقاء أكبر عدد ممكن من السكان فى المستوى القديم وهو المستوى الذى كان ولا يزال أعلى قليلا من مستوى الفاقة . وما دامت التحسنات التقدمية فى ميدان الإنتاج ستأتى معها حتما إن آجلا أو عاجلا بقاعدة تناقص الغله Diminishing Returns فإن مستوى هؤلاء المتضخمين سينهار حتما ولن تكون هناك إلا الكارثة العظمى .

وفى وضع اقتصادى مثل هذا الوضع يحتمل أن تكسب الشيوعية لنفسها مكانا فوق أرض الهند بل وفى دول أسيوية أخرى وهى كلها بلاد تعتبر

الشيوعية فيها غريبة عليها غرابة طريقة الحياة الغربية عليها ايضاً . والشيوعية برنامج آلى إجبارى شامل تقدمه كعلاج خداع للأزمة التى يعيش فيها الفلاحون الآسيويون التعساء ومن المضحك ان ننصح مثلاً هؤلاء التعساء فى ازمتهم بأن يعالجوها على الطريقة الأمريكية .

وحين نتناول الحديث عن الشرق الأقصى فى الفصل التالى سنتحدث عن مشكلة السكان هذه ، ومدى تأثيرها على الصراع بين روسيا والغرب .

الفصل الرابع

الشرق الأقصى والغرب

فى الفصل السابق من هذا الكتاب رأينا كيف أن طريقة الحياة الغربية كانت أجنبية على الهندوس أكثر منها على الروس والمسلمين ، ذلك لأن طريقة الحياة عند هؤلاء الهندوك لم يكن فيها من العناصر الإغريقية الدخيلة عليها سوى القليل والقليل جداً منها وهى العناصر التى تعتبر تراثاً عاما ومشتركا لكل من المسلمين والروس والغربيين .

والشرق الأقصى كذلك لا يزال أقل من العالم الهندوكى فى اشتراكه مع الغرب وأصوله الحضارية . وليس ثمة جدال فى أن نفوذ الفن الإغريقى وتأثيره فى فن الشرق الأقصى أمر واضح وملحوظ ، غير أن هذا النفوذ الفنى الإغريقى لم يصل إلى الشرق الأقصى إلا عن طريق الهند ، أى أنه قد جاء إليه فى إطار دين هندى وأعنى به البوذية التى سيطرت على عالم الشرق الأقصى ، كما سيطرت اليهودية والإسلام على العالم الإغريقى الرومانى . وليس ثمة جدال أيضا فى أن العقيدة الإسلامية التى انتشرت فى مساحة واسعة من الأراضى الهندية عن طريق الفتح قد تغلغلت كذلك إلى داخل الأطراف الغربية من الصين بوسائل سلمية هذه المرة .

وهكذا كان نفوذ العالم الإغريقى قد لعب دوره فعلا فى الشرق الأقصى — وهو فى هذا يشبه الهند — قبل أن يتعرض هذا الشرق لغزو الحضارة الغربية الحديثة له فى القرن السادس عشر . ولكن هذا النفوذ الإغريقى السابق على النفوذ الغربى كان أقل أثرا فى الشرق الأقصى منه فى الهند .. فقد كان من ضحالة التأثير بحيث لم يستطع أن يهيء الجو الملائم لزحف الحضارة الغربية ودخولها هذه المنطقة على الرغم من أن هذه الحضارة ليست سوى فرع من فروع العائلة الإغريقية .

وحين وصل البرتغاليون وهم أول جماعة من أسرة الحضارة الغربية وفدت إلى هذه المنطقة إلى شواطىء الصين واليابان فى القرن السادس عشر نزلوا هناك وكأنهم ضيوف أتوا من كوكب آخر .

وكان تأثير هذه الزيارة الغربية الأولى على مشاعر شعوب شرق الأقصى مضطربا ومختلطا فقد كان مزيجا غير ثابت من الإعجاب والنفور ، إلا ان الشعور بالنفور خلال هذه المرحلة الأولى من الاحتكاك هو الشعور الذى ساد شعوب هذه المنطقة فى النهاية ، ودفع بموجة الغزاة الغربيين هذه التى ظهرت خلال القرن السادس عشر دفع بها إلى المحيط الذى امتدت منه فجأة على شواطىء هذا الشرق الأقصى ، فأغلقت كل من اليابان وكوريا والصين أبوابها فى وجهها وقررت أن تعيش قدر ما تستطيع أشبه « بمملكة مغلقة » .

ولكن هذا كله لم يكن الفصل الأخير فى القصة فبعد أن تم طرد هؤلاء الغزاة الغربيين من اليابان فى القرن السابع عشر وتم طردهم كذلك من الصين فى القرن الثامن عشر عادوا إلى الغزو مرة أخرى فى القرن التاسع عشر ونجحوا هذه المرة الثانية فى إدخال طريق الحياة الغربية إلى بلاد الشرق الأقصى ، كما كانوا قد نجحوا فى ذلك الوقت أيضا فى إدخالها كذلك إلى روسيا والهند وبدأوا يعملون على إدخالها إلى بلاد العالم الإسلامى .

وهنا نتساءل : ما هى الفروق التى يمكن أن نراها فى الموقف ؟ وأعنى بها الفروق التى تعلل سبب الاختلاف فى نتيجة هاتين المحاولتين القريبتين المتعاقبتين اللتين كان هدفهما السيطرة على عقول شعوب الشرق الأقصى ؟

والجواب هو أن الفرق الاول — وهو فرق واضح — يتمثل فى التقدم التكنولوجى ، فالسفن الغربية وكذلك الأسلحة الغربية لم تكن فى القرن السادس عشر أكثر تفوقا من سفن الشرق الأقصى واسلحته إلى الحد الذى يجعل لهؤلاء الغزاة الغربيين اليد العليا فى الموقف وهكذا بقيت شعوب الشرق الأقصى فى هذه الجولة الأولى من جولات الصراع بين الحضارتين سيدة

الموقف ، ولذلك فحين قررت هذه الشعوب أنها تريد أن تقطع العلاقات بينها وبين الغرب لم يكن هؤلاء الغربيون الأجانب من القوة بحيث يستطيعون أن يقاوموا هذه الإرادة .

ولكن هؤلاء الغربيين حين ظهروا مرة ثانية قرب شواطىء الصين واليابان فى القرن التاسع عشر كانت كفتهم فى ميزان القوى قد ثقلت ، فى هذا الوقت كانت الأسلحة الصينية واليابانية لا تزال على المستوى الذى كانت عليه منذ مائتى عام بينما كان الغربيون قد قاموا فى نفس هذا الوقت بثورتهم الصناعية وعادوا الآن مزودين بالأسلحة الجديدة التى لم يكن لشعوب الشرق الأقصى قبل بها . ومن ثم كان لابد من فتح منطقة الشرق الأقصى أمام النفوذ الغربى بطريقة أو بأخرى .

وسرعان ما وجدت ممالك الشرق الأقصى المغلقة التى حاولت ان تقف أمام التحدى التكنولوجى الغربى الجديد بتجاهله ، ابوابها تتحطم امام مدافع الغرب الثقيلة ، ولم يصبح امامها من اختيار سوى ان تترك الغزاة الغربيين يتواجدون على مقربة منها للتعلم منهم فنون اسلحة القرن التاسع عشر ، ولم يكن من المستطاع ان يحدث ذلك مالم يفتح الشرق الأقصى ابوابه عن طواعية امام تكنولوجية الغرب الحديثة قبل ان يفرض المحاربون الغربيون هذا الدخول بالقوة .

وكان اليابانيون أكثر سرعة وحماساً من الصينيين فى قبول وتنفيذ هذه السياسة الوحيدة التى كانت ترمى إلى إثبات وجودهم والمحافظة على كيانهم أمام الغرب بتعلمهم طريقة استخدام أحدث أنواع الأسلحة ومناعتها . إلا ان الصينيين عملوا فى الوقت المناسب أيضاً على إنقاذ انفسهم من المصير الذى وقعت فيه الهند أى من التبعية للدول الغربية .

ومهما كان من امر فإن هذه الأجزاء لا تمثل القصة كلها . . فبينما قد يفسر لنا التفوق التكنولوجى الذى امتاز به الغرب على الشرق الأقصى بفضل ثورته الصناعية السبب فى ان شعوب هذه المنطقة قد وجدت نفسها مضطرة إلى أن

تفتح ابوبها للحضارة الغربية فى القرن التاسع عشر فإنه ما زال علينا ان نجرى البحث عن تفسير السبب الحماسى الذى تسلحت به شعوب هذه المنطقة لطرد الوافدين الغربيين من أقاليمهم وقطع علاقاتهم بالعالم الغربى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وسيكون إزالة النقاب عن حقيقة سر هذا الحماس فى الاحتكاك الأول الذى حدث بين الشرق الأقصى والغرب أمراً مدهشاً للغاية ذلك لأن هؤلاء الغربيين حين ظهروا فى أفق شعوب الشرق الأقصى للمرة الأولى فى القرن السادس عشر أظهرت، هذه الشعوب أنها أكثر استعداداً للترحيب بهم بالرغم من انهم كانوا لا يزالون يومذاك أجانب وغرباء مجهولين لهم، بل وأظهروا كذلك انهم أكثر استعدادا لانتهاج طريقة حياتهم مما كانوا عليه بعد ذلك بثلاثمائة عام حين عاد هؤلاء الغربيون مرة ثانية تصحبهم سمعتهم السيئة التى ألحقوها بأنفسهم عند زيارتهم الأولى فى القرن السادس عشر. ولكن هذا الصراع الثانى الذى رفضت فيه شعوب الشرق الأقصى عمداً أن تدخل معركته قد انتهى بدخول أسلوب الحياة الغربى إلى بلاد هذه الشعوب، بينما انتهى الصراع الأول — كما عرفنا — وهو الذى بدأ بالترحيب من جانب شعوب الشرق الأقصى — انتهى بالفشل الذريع للغرب فما هو إذن مفتاح هذا الاختلاف البين بين هذين الفصلين من فصول دراما صراع الشرق الأقصى مع الغرب؟

الاختلاف أو الفرق فى رد الفعل عند شعوب الشرق الأقصى بالنسبة للحضارة الغربية فى كل من الموقفين لم يكن قائما على تغلب الهوى، بل كان رد الفعل فى كل منهما يختلف عن الآخر. ذلك لأن التحدى الذى كانوا يواجهون به من جهة الغرب فى الموقف الأول — لم يكن يشبه التحدى الذى ووجهوا به فى المرة الثانية فقد كانت الحضارة القومية فى القرن التاسع عشر تقدم نفسها أساساً على إنها تكنولوجية جديدة غربية بينما كانت تقدم نفسها خلال القرن السادس عشر على إنها دين جديد غريب.

وهذا الاختلاف الذى أظهرته الحضارة الغربية فى شكلها فى كل منهما

الموقفين يفسر لنا فى سهولة سر الاختلاف فى رد الفعل الذى كانت عليه شعوب الشرق الأقصى قلباً وعقلا أمام الغزو الغربى لبلادهم فى كل من المرتين الأولى والثانية . فالتكنولوجية الجديدة الغربية ليس من الصعب قبولها على عكس الدين الجديد للغرب ، فمن الواضح أن التكنولوجيا تلعب دورها على سطح الحياة . ومن ثم يبدو إنه من الممكن عملياً أن يقتبس الإنسان اية تكنولوجية أجنبية دون أن يعرض نفسه لخطر عجزه عن الاحتفاظ بروحه .

وهذا الرأى القائل بأن الإنسان حين يأخذ تكنولوجية أجنبية إنما يعرض نفسه لخطر محدد فقط إنما هو رأى ينقصه حسن التقدير فالواقع — كما يبدو — ان كل عنصر من العناصر المختلفة التى يتكون منها النموذج الحضارى المقتبس يرتبط بالآخر بعلاقة عميقة وثيقة بحيث أن اثر تخلى أى إنسان عن تكنولوجيته التقليدية واتخاذ بدلا منها تكنولوجية أجنبية لا يكون قاصرا على السطح التكنولوجى للحياة فقط ، بل انه يظل يتسرب تدريجيا إلى الأعماق حتى تنهار كل حضارة هذا الإنسان التقليدية ، وتجد الحضارة الأجنبية لنفسها شيئاً فشيئاً منفذاً عن طريق الفجوة التى أحدثها الاسفين المتسرب للتكنولوجية الأجنبية فى الحلقة الخارجية لخطوط الدفاع الحضارى .

وإننا لنرى اليوم فى كل من الصين وكوريا واليابان ، اى بعد قرن أو أكثر من قرن من التاريخ الذى بدأت فيه تكنولوجيتنا الغربية الحديثة تتسرب لأول مرة إلى هذه البلاد ، أقول نستطيع أن نرى التأثيرات الثورية النهائية على كل حضارتهم تحدث اليوم أمام أعيننا فالزمن — على كل حال — هو صاحب الدور الرئيسى فى هذه العملية والنتيجة الثورية فى الشرق الأدنى التى تبدو اليوم واضحة للعيان لم يكن يتنبأ بها رجالات السياسة منذ مائة عام عندما كانوا يتخذون فى تردد قرارهم فيما يتعلق بقبول هذه التكنولوجية الأجنبية ، تكنولوجية الغرب . فى أقل جرعة ممكنة للوفاء بمتطلباتهم فيما يتصل بالأمن العسكرى عندهم دون توسع أو تجاوز لهذا الحد ولكنهم حتى ولو كان لديهم

أي عيب في القوى الخفية التي كانت لحصان طرواده الذى كان يتحرك فى كمينه داخل إطاره الجديدى ، فربما كانوا سيظلون عند رأيهم فى تحريكه فى الداخل. فقد أدركوا بوضوح أنهم إذا ترددوا الآن فى اتخاذ هذه التكنولوجية الغربية الأجنبية فإنهم سرعان ما سيقعون فريسة للغزاة الغربيين المزودين بأسلحة لم يكن لهم بها قبل يومذاك . فلقد كان الخطر الخارجى للغزو من جانب أية دولة غربية هو التهديد المباشر الذى كان على رجال السياسة فى الشرق الأقصى خلال القرن التاسع عشر أن يقفوا أمامه ويكافحوه . وبالمثل كان الخطر الداخلى من ان يقعوا فى النهاية مادياً ومعنوياً أسرى لطريقة الحياة الغربية كنتيجة لاتخاذهم التكنولوجية الغربية — كان هذا الخطر يمثل تهديدا اكثر بعدا .

وهكذا كان اتخاذ التكنولوجيا الغربية فى القرن التاسع عشر بما كانت عليه يومذاك من مستوى متفوق تفوقا شاملا ، كان اتخاذها يبدو أمام السياسيين فى الشرق الأقصى مخاطرة مشروعة بل وضرورة حتمية أيضاً . . وهذا يفسر لنا لماذا أخذ هؤلاء السياسيون فى ذلك الوقت شيئاً ما عن الغرب وكان شيئا قليلا بالنسبة لاستعدادهم وعلى أى حال فقد بدا أن ذلك كان اقل شراً من أن يقعوا فى قبضة الغرب والتبعية له ، وهذا الغرب هو صاحب الأسلحة التى كان سياسيو الشرق الأقصى فى ذلك الوقت يقررون اقتباسها كسياسة لتأمين انفسهم سياسيا وعسكريا . ومن ناحية اخرى فإن « المسألة الغربية » وهى المسألة التى كان على السياسيين فى الشرق الأقصى خلال القرن السابع عشر — وهم اسلاف سياسيي القرن التاسع عشر — ان يعالجوها قد عادت لتقدم نفسها مرة ثانية فى شكل آخر مختلف تماما .

فلم يكن الخطر المباشر فى جولة الصراع أو الاحتكاك الأول مع الغرب، وهو الخطر الذى كان على السياسيين فى اليابان أن يصدوه عن بلادهم ، لم يكن هذا الخطر هو أن يروا بلادهم تقع فى أيدى الجنود الغربيين المزودين بالأسلحة الجديدة التى لا يمكن لهم مقاومتها ، بل كان هذا الخطر هو أن يروا شعوبهم تتحول عن دينها على أيدى المبشرين الغربيين حين يروجون لدين أجنبي لا يقاوم

إغراؤه ، وربما لم يكن هؤلاء السياسيون اليابانيون فى القرن السابع عشر — وهم على النقيض فى ذلك تقيض المسيحيين الغربيين الذين وفدوا إلى بلادهم فى نفس هذا القرن زائرين — لم يكونوا قد أصيبوا بعد بعدوى التعصب الدينى الذى كان معاصروهم من الغربيين قد ورثوه من ماضى اليهودية المسيحية وكانوا يعلنونه خلال هذا القرن فى الحروب الدينية الداخلية فى بلادهم الأوروبية ، كذلك فإن هؤلاء السياسيين من أبناء الصين واليابان فى القرن السابع عشر كانوا قد نشأوا وترعرعوا فى ظل التعاليد الفلسفية للكونفشيوسية والبوذية وهى من غير شك أكثر تسامحاً ورقة ، وربما لم يكونوا ليعترضوا على إقامة ميدان حر لدين آخر لو لم يخامرهم الشك فى أن النشاط الدينى الذى يقوم به المبشرون المسيحيون الغربيون له دوافع سياسية بعيدة . أما ما كان يخشاه السياسيون اليابانيون ويخافون منه أشد الخوف فهو أن شعوبهم التى كان هؤلاء المبشرون الأجانب يعملون على تحويلها عن دينها إلى المسيحية الغربية ستتشرب روح التعصب الدينى التى كان يتسم بها الدين المسيحى الذين تحولوا إليه ، وتحت هذا النفوذ اللاأخلاقى الشائن سيسمحون لأنفسهم بأن يستخدمهم هؤلاء المبشرون كطائفة من هذه الطوائف التى نطلق عليها اليوم فى الحرب اسم « الطابور الخامس » .

ولو قدر لهذا الاتجاه أن ينجح فإن البرتغاليين او الأسبان — الذين لم يكونوا يمثلون يومذاك فى حدذاتهم تهديداً حقيقياً أو خطراً على استقلال اليابان — قد يعملون فى النهاية على التغلب على اليابان عن طريق هؤلاء الخونة من أبناء اليابان انفسهم وليس من شك فى أن الدافع الذى جعل حكومة اليابان فى القرن السابع عشر تحرم المسيحية فى بلادها وتضيق الخناق عليها هو نفس الدافع الذى يجعل الحكومات الغربية اليوم وفى القرن العشرين تحرم الشيوعية وتضيق الخناق عليها ايضاً . وهنا عنصر مشترك بين هاتين العقيدتين الغربيتين المسيحية والشيوعية — هذا العنصر هو التعصب الذي ورثته كل من العقيدتين عن اليهودية وهو — اى التعصب — عامل كان يمثل دائماً حجر العثرة فى أية دولة اسيوية يدعى فيها للديانة المسيحية .

ومن الواضح ان الدين الأجنبي الغازي يعتبر تهديدا مباشرا أكثر خطورة من التكنولوجيا الأجنبية الغازية على المجتمع الذى يكون موضع الغزو ، فهناك سبب لذلك أعمق من خطورة استخدام الذين تحولوا إلى الدين وأصبحوا طابوراً خامساً فى بلادهم ذلك أنه بينما تلعب التكنولوجيا دورها على سطح الحياة فقط نجد الدين يمتد إلى أغوار عميقة ، إلى الجذور . ومع أن التكنولوجيا الأجنبية قد يكون لها أيضاً تأثير مدمر عميق على الحياة الروحية للمجتمع الذى تستطيع هذه التكنولوجيا ان تخلق لنفسها فيه موطىء قدم إلا ان هذا التأثير يستغرق بعض الوقت حتى يظهر . ومن أجل هذا فإن اية حضارة غازية تدخل فى شكل الدين قد تثير معارضة أقوى واسرع من الحضارة التى تدخل فى ثوب تكنولوجى خالص .

ومن هنا نستطيع أن ندرك لماذا لاقت الحضارة الغربية رفضاً ومعارضة من كل شعوب الشرق الأقصى وشعوب روسيا فى أول الأمر — ثم لاقت قبولا ورضا بعد ذلك فى المرة الثانية ، لقد لاقت الحضارة الغربية رفضا فى روسيا فى القرن الخامس عشر وواجهت نفس الموقف كذلك فى الشرق الأقصى فى القرن السابع عشر لأنها كانت تهدف إلى تحويل شعوب هذه البلاد إلى الشكل الغربى للمسيحية ، ولم يكن من قبيل المصادفة ان حظ الحضارة الغربية فى ميدان التبشير قد تغير من الفشل الواضح إلى النجاح الملحوظ بمجرد أن تغير موقفها من دينها الموروث من التحمس الشديد إلى التشكك البارد .

ولقد حدثت هذه الثورة الروحية العظيمة فى العالم الغربى فى حوالى اواخر القرن السابع عشر حين اقلقت الحروب الأهلية الوحشية التى ظلت قائمة فترة مائة عام لا تنقطع تحت ظل أعلام الطوائف الدينية المتنافسة — اقول اقلقت هذه الحروب نفوس شعوب العالم الغربى وجعلتهم لا يكرهون الحروب الدينية فقط ويعلونها بل يكرهون كذلك الدين نفسه وكان رد الفعل عند العالم الغربى لتجربة القصاص الذاتى SELF INFLICTED EXPERIENCE بعد آثام

التعصب الديني، كان رد الفعل هذا هو أنهم سحبوا رصيدهم من الدين ليستغلوه في التكنولوجيا ، وكان اخذ الغرب جزءا من رصيد انجيل حضارتهم لاستغلاله في تكنولوجيا مادية بعد تمزيق صفحة التعصب الديني هو الاتجاه الذي وجد رواجا واسعاً في العالم خلال القرنين ونصف القرن الماضية أي ابتداء من جيل بطرس الأكبر حتى جيل مصطفى اتاتورك .

وقد نعثر ونحن نبحث عن تفسير للاختلاف الذي يلفت النظر بين نتيجتي حركتي الغزو الغربي المتتاليتين في الشرق الأقصى ، قد نعثر على قانون إذا جاز الإنسان أن يسمى ذلك قانوناً لا ينطبق فقط على هذه الحالة وحدها دون غيرها بل ينطبق كذلك على كل حالة من حالات الاحتكاك والصراع بين أية حضارة واخرى وهذا القانون يشير إلى أن أي جزء من أية حضارة ينشق من الكل أي من كل هذه الحضارة ويروح بنفسه في مكان آخر خارج موطن حضارته الأصلي قد يقابل بمقاومة أقل — ومن ثم ينتشر على نحو اسرع وابعد — مما تقابل به حضارة انتقلت بكليتها . فقد لاقت التكنولوجيا الغربية حين إنفصلت عن المسيحية الغربية قبولا واستجابة لا في الصين واليابان وحدهما بل كذلك في روسيا ودول أخرى كثيرة غير غربية بينما واجهت رفضاً وإعراضاً حين كانت تقدم نفسها على انهـا جزء لا يتجزأ من كل وجزء لا يتجزأ ايضاً من طريقة الحياة المتكاملة للمسيحية الغربية .

ورواج التكنولوجيا الغربية على مستوى عالمي تقريباً — وهي الجزء الذي إنشق من الحضارة الغربية منذ اواخر القرن السابع عشر — هذا الرواج يدعو إلى الدهشة إذا قورن بالفشل الحتمي الذي اصاب هذه الحضارة الغربية حين قامت تعمل على تحويل شعوب العالم غير الغربي إلى طريقة الحياة الغربية في الفترة الأولى من العصر الحديث حين كان الغرب يعرض حضارته الغربية على هذا العالم ليقبلها ككل أو يرفضها ككل بما فيها من دين وتكنولوجيا وغيرهما .

والیوم وقد وقفت الصين وروسيا تتحديان مغامرة الغرب فى محاولته كسب العالم نستطيع أن ندرك أن انتصار الحضارة الغربية الواضح بفضل التكنولوجيا لن يكون انتصاراً دائماً نظراً لنفس السبب الذى جعل هذا الانتصار أمراً سهلا. هذا السبب هو أن هذا الانتصار لايعدو أن يكون مجرد انتصار ظاهرى. فقط فإن الغرب قد أطلق تكنولوجيته لتتسابق حول العالم بحجة أنها قد تحررت من قيود ارتباطها بالمسيحية الغربية ، ولكن هذه التكنولوجيا الغربية التى لا ترتبط بالمسيحية الغربية قد التقطها الروس وربطوها بالشيوعية وهذا المزيج الجديد المتماسك من التكنولوجيا الغربية والزيغ الدينى الغربى فالشيوعية ليست سوى هرطقة دينية غربية تقدم اليوم إلى شعوب الشرق الأوسط بل وإلى جميع الشعوب الأخرى على أنها طريقة للحياة تنافس طريقة الحياة الغربية .

ولقد كنا معشر الغربيين فى القرن التاسع عشر نسر كثيراً حين رأينا شعوب الصين واليابان الذين رفضوا حضارتنا الغربية فى صورتها الدينية قد قبلوها فى صورتها الدنيوية المادية التى حظيت فيها التكنولوجيا (لا الدين) بمكان التقدير والاعتبار . فقد بدا أن ثورة الميجى Meiji » فى اليابان ثورة الكومنتانج فى الصين لم تكونا سوى انتصار للحضارة الغربية الدنيوية المادية ، غير أن العمر قد امتد بنا حتى رأينا كيف أن هذا التوسع للحضارة الغربية الدنيوية قد خيب آمالنا فى هاتين الدولتين . فقد خلق فى اليابان نظاما عسكريا يعتبر كارثة كبرى كما خلق فى الصين كذلك فسادا سياسيا يعتبر هو الآخر كارثة كبرى ودفعت الكارثة بالحكم فى هاتين الدولتين إلى نهاية قاسية عنيفة .

فهذا الفشل الذى أصاب محاولة خلق تكييف وأقلمة الشكل الدنيوى للحضارة الغربية فى الصين قد تبعه انتصار للحركة الشيوعية فيها ، فما هى إذن تلك الظروف التى ساعدت الشيوعية فى الصين ؟ وما هو الشيء الذى اكسبها هذا الحظ هناك ؟

لا يمكن أن يكون هذا الشيء — كما يستطيع أى إنسان أن يتبين هو — وجود أى نوع من حماس إيجابى عظيم لدى الصينيين يومذاك بقدر ما يمكن أن

يكونون ظهورن بيأس كامل وقنوط عام من الغمان الذي كان يقوم به اليكو ونتائج فى محاولته حكم الصين على النمط الغربي الدنيوى؛ وقد يخامرنا الريب كذلك في أن اليابانيين لو كانوا في ذلك الوقت أيضا احراراً في أن يسيروا كما يشاءون ليقعوا هم الآخرين في قبضة الشيوعية نظراً لنفس هذاالسبب السابق .

على أن هناك في كل من الصين واليابان اليوم عاملين لصالح الشيوعية أولهما هو عدم إيمان شعوب هذين البلدين بالتجربة الماضية التي بذلت لمحاولة تأكيد وجود طريقة الحياة الغربية الدنيوية فيهما . وثانيهما هو وجود ضغط في عدد السكان المتزايد تزايداً سريعا على وسائل العيش المحدودة ، وهو الضغط الذي يمثل أيضا تهديداً للحكم الذي يقوم اليوم في الهند على النمط الغربي .

والحقيقة هي اننا حين نقدم لشعوب الصين واليابان حضارتنا الغربية في شكلها الدنيوى نكون كمن يقدم لهم قطعة من الحجر بدلا من لقمة من الخبز بينما نرى الروس حين يقدمون لهذه الشعوب أيديولوجيتهم الشيوعية كتكنولوجيا يكونون كمن يقدم لهم الخبز ، الخبز الأسود ذا الحصى — إذا جاز لك أن تسميه كذلك — ولكن لإزالة المادة الصالحة للاكل التي تحوى في داخلها حبوب غذاء الحياة الروحية التي لا يستطيع الإنسان أن يحيا بدونها .

ولكن إذا لم تستطع كل من الصين واليابان أن تهضم صورة الحضارة الغربية فى القرن السادس عشر حين كان فيها جزء رئيسى ولم تستطع أن تحتفظ بحياتها ايضاً على نمط الحضارة الغربية فى القرن التاسع عشر حين انفصلت عن الدين — فهل معنى هذا أن الشيوعية هى البديل الوحيد لهم عن ذلك ؟

والإجابة على هذا السؤال هي أنه فى الصين وكذلك فى الهند خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر قبل أن يكون هناك حتى حلم بوجود الشيوعية خلقت الارساليات الغربية المسيحية الشيوعية هناك بديلا مختلفا ، وليس من شك فى أن تجربة هذه الإرساليات قد لاقت مصيراً محزنا وانتهت نهاية مفجعة ولكن الذى دمرها وحطم جهودها لم تكن أخطاء داخلية ارتكبتها هذه الإرساليات الجزويتية نفسها ولكن الذى أوصل هذه النهاية إلى ما انتهت إليه

هو ذلك الصراع المنكود والفتن التى حدثت بين الجزويت والإرساليات المسيحية الكاثوليكية الرومانية الأخرى فى نظمها .

فلم يرتكب اليسوعيون فى الصين والهند الخطأ الذى ارتكبوه فى اليابان حين تركوا دعوتهم للمسيحية تصبح موضع شك واتهام بأنها تعمل لتحقيق أهداف سياسية لمصلحة الدول الغربية المعتدية . وكانت طريقة اليسوعيين فى عملهم للدعاية للمسيحية فى الصين طريقة مختلفة وناجحة فى حد ذاتها بحيث ان دراستنا لصراع الشعوب الآسيوية واحتكاكها بالغرب ستظل ناقصة مالم نأخذ فى الاعتبار ذلك النموذج الذى سار عليه اليسوعيون فى كل من الصين واليابان فبدلا من ان تحاول — كما فعلنا — فصل الصورة الدنيوية لحضارتنا الغربية عن المسيحية حاول اليسوعيون فصل المسيحية عن كل عنصر غريب غير مسيحى فى الحضارة الغربية وقدموا المسيحية إلى الهندوك والصينيين لا على انها دين محلى خاص بالغرب بل على انها دين عالمى تتجه رسالته إلى كل البشرية .

وهذا الانتصار الحديث الذى احرزته الشيوعية فى الصين على الحضارة الغربية التى انفصلت عن المسيحية ليس دليلاً على ان المسيحية لن يكون لها فى الصين مستقبل فى الفترة القادمة من التاريخ وهى الفترة التى لاتزال اليوم بعيدة عن افقنا التاريخى .

الفصل الخامس

سيكلوجيه الصراع

فى الفصول الأربعة السابقة من هذا الكتاب كنا نعرض أربعة مواقف هامة تصارعت فيها الحضارة الغربية مع مجتمع معاصر غير غربى ، درسنا فيها تجربة من روسيا والعالم الإسلامى والهند والشرق الأقصى مع الغرب . وأوضح عرضنا هذا ان هذه التجارب الأربع المختلفة التى حدث فيها هجوم حضارة غربية كانت تشترك جميعها فى عدد من الملامح . وهدفنا فى هذا الفصل من الكتاب هو ان نأخذ بعض هذه الملامح التى لا تعتبر تمييزاً أو تحديداً لمعالم صراع العالم المعاصر مع الغرب فقط بل تعتبر كذلك تمييزاً لمعالم كل صراع واحتكاك يتم بين أية حضارة وأخرى .

ويبدو ان هناك شيئاً ما أشبه بسيكولوجية عامة يشترك فيها كل صراع وهو الشىء الذى أصبح اليوم موضع الاهتمام العملى والأهمية القصوى بعد ان أدى القضاء المفاجىء على المسافات بفضل ما حققته التكنولوجية الغربية إلى ان تقف ستة مجتمعات وجهاً لوجه ويتصل بعضها ببعض ان كان كل منها يعيش حتى الأمس حياته بطريقته الخاصة مستقلا تقريبا عن جيرانه كما لو كان يعيش فى كوكب خاص لا فى عالم واحد توجد فيه عناصر أخرى من نفس الجنس .

وقد نبدأ هنا بأن نذكر أنفسنا بالظاهرة العامة التى لاحظناها فى الفصل السابق حين كنا نقارن بين غزو الحضارة الغربية الأول وغزوها الثانى للصين واليابان . فقد رأينا ان الغرب فى المرة الأولى قد حاول ان يقنع شعوب الشرق الأقصى بأن طريقة الحياة الغربية على اطلاقها بكل ما تتضمنه من دين وتكنولوجية ورأينا كذلك كيف ان هذه المحاولة لم يقيض لها النجاح ثم رأينا الغرب فى الفصل الثانى من المسرحية يقدم لنفس هذه الشعوب شعوب الشرق

الأقصى صورة دنيوية مقتبسة من الحضارة الغربية وهي صورة تركت الدين جانبا وكانت التكنولوجيا فيها — وليس الدين — هي السمة الرئيسية .

ولاحظنا كذلك ان هذا الجزء التكنولوجي الذى انشق عن الأصل الديني للحضارة الغربية فى حوالى القرن السابع عشر قد نجح فى ان يأخذ طريقه إلى أعماق حياة مجتمع الشرق الأقصى الذى سبق ان رفض محاولة ادخال طريقة الحياة الغربية ككل بما فيها من تكنولوجية وغيرها لأنها كانت تتضمن دينا .

ولدينا هنا نموذج لهذا الشيء الذى يبدو انه يحدث غالبا فحين يصطدم شعاع فكري من حضارة مشعه بمجتمع أجنبي عنه تكون مقاومته هذا المجتمع الأجنبي المغزو هي تفريق هذا الشعاع إلى عناصره الأساسية التي يتكون منها تماما كما تتحلل اشعة الضوء إلى ألوان الطيف حين تنفذ هذه الأشعة خلال المنشور ونحن نعرف أيضاً فى علم البصريات ان بعض عناصر الضوء فى الطيف يكون لها قوة نفاذ أكثر من غيرها .

وقد رأينا سابقاً ان هذا هو نفس ما حدث فى العناصر الأساسية للشعاع الحضاري فى حالة تأثير الغرب على شعوب الشرق الأقصى رأينا ان العنصر التكنولوجي أو بعبارة أدق الشعاع التكنولوجي فى اشعاع الحضارة الغربية قد تغلب على ما صادفه من مقاومة بينما لم يستطع العنصر أو الشعاع الديني ذلك . وهذا الفرق فى قوة نفاذ شعاع الحضارة التكنولوجية والدينية ليست ظاهرة غريبة على تاريخ العلاقات بين هاتين الحضارتين بل ان هذا واحد من قوانين الاشعاع الفكري . فعندما يتحلل الشعاع الحضاري المنطلق إلى أشعته أو عناصره الأساسية تكنولوجيا ودينا وسياسة وفنا الخ . بفعل المقاومة التي يبديها المجتمع الأجنبي الذى اصطدم به هذا الشعاع فإن العنصر أو الشعاع التكنولوجي هو الذى ينفذ أسبق وأعمق من الشعاع الديني ويمكن صياغة هذا القانون فى اصطلاحات عامة أكثر . فيمكن ان نقول ان قوة النفاذ والتغلغل لشعاع من الإشعاع الحضاري تتناسب تناسباً عكسياً للقيمة الحضارية لهذا الشعاع ، ويثير شعاع تافه فى المجتمع الأجنبي الذى يغزوه مقاومة أقل مما يثيرها شعاع هام لأنه

الشعاع التافه لا يهدد بخلق اضطراب او قلق عنيف يؤثر على طريقة الحياة التقليدية التي عليها هذا المجتمع المغزو .

وهذا الانتخاب الآلي الذي يترتب عليه ان تكون العناصر التافهة من عناصر الحضارة المشعة أوسع انتشاراً في الخارج هو بلا شك واحد من القواعد المؤسفة في ميدان التفاعل الحضاري ولكن هذا ليس أسوأ ما في الموضوع . فنفس عملية تفريق الشعاع التي تعتبر جوهر عملية التفاعل الحضاري تهدد بتسميم حياة المجتمع الذي يتخلل جسده العناصر والأشعة المتبددة للشعاع الحضاري المتفرق .

ويمكن استخدام أمثلة مشابهة من علمي الطبيعة والطب لكي توضح هذا الموضوع أيضاً فبعد ان اكتشفنا فكرة تفتيت الذرة عرفنا وليتنا ما عرفنا ان الجزئيات التي تكون ذرة ذات عنصر غير مؤذ لا تظل هكذا غير مؤذية بل تصبح ذات أثر تدميري خطير بمجرد ان تنشق عن مجموعة الجزئيات المنتظمة التي يتكون منها الذرة وأيضاً بمجرد ان تطلق لتطير نفسها في مهمات مستقلة خاصة بها . ولقد عرفنا كذلك ولم يكن هذا على حسابنا في هذه المرة بل على حساب البقايا الحية من الإنسان البدائي وهي العناصر التي كانت ذات يوم في عزلة تامة عن العالم ــ عرفنا ان المرض الذي يعتبر مرضاً عادياً بالنسبة لنا بسبب شيوعه بيننا بعد ان خلقنا له مقاومة فعالة هذا المرض قد يكون مرضاً مميتاً ومهلكا بالنسبة لسكان جزر المحيط الجنوبي الذين كانوا في مأمن منه قبل ان يتعرضوا له فجأة بسبب وصول الأوربيين الذين كانوا يحملونه معهم حين وفدوا إليهم .

وقد يصبح العنصر او الشعاع المنطلق من الاشعاع الحضاري مثلما يصبح الالكترون المنطلق وكذلك المرض المعدى قد يصبح هذا العنصر عنصراً مدمراً حين ينفصل من المجموعة التي كان يقوم بدوره فيها حتى وقت انطلاقه ثم ينطلق ليذهب بعيداً بنفسه إلى بيئة أخرى . فهذا العنصر أو الشعاع الحضاري في مكانه الأصلي وكذلك الميكروب والالكترون لا يستطيع أن يقوم بعملية التدمير

لأنه يظل محتفظاً بنظام معين بفضل ارتباطه بالعناصر الأخرى من عناصر النموذج الذى تحتفظ به الجزيئات المتعددة بحالة اتزان . وهذا الجزء المنطلق وكذلك الميكروب أو العنصر أو الشعاع الحضارى المنطلق لا يغير طبيعته بل إن نفس طبيعته هذه هى التى تولد الأثر المدمر بدلا من الأثر السلبى الذى كان عليه هذا العنصر حين كان مرتبطاً بمجموعته الأصلية وفى هذه الحالة يمكن أن يصبح طعام لإنسان من اللحوم سماً بالنسبة لإنسان آخر .

وفى الصراع الذى قام بين العالم والغرب — وهو موضوع هذا الكتاب — رأينا كيف ظهر الشكل التقليدى أى كيف ظهرت الشروز التى يحدثها دائما نظام ما حين ينطلق من مكانه الأصلى الذى كان مرتبطا فيه مع مجموعة أخرى من النظم التى تشكل جميعها هيكلا واحداً ليتجه إلى جزء آخر من العالم يصارع ويتصارع بنفسه .

ولقد رأينا كيف أن النظام السياسى الغربى فيما يتعلق بنظام « الدول القومية » خلال المائة والخمسين عاما الماضية قد استطاع أن يحطم حدود موطنه الأصلى وأن يشيع الاضطهاد والاغتيالات حين انتشر خارج أوروبا الغربية فى مناطق أوروبا الشرقية وجنوب غربى آسيا والهند كذلك وهى مناطق لم يكن نظام « الدول القومية » فيها جزءاً أساسياً من نظامها الاجتماعى المحلى بل كان نظاما أجنبيا عليها أدخله الغرب عمداً لا لأنه ثبت بالتجربة أنه نظام يناسب الأوضاع والظروف المحلية فى هذه البلاد غير الغربية بل لأن المسألة فى بساطة هى أن السلطات السياسية الغربية قد أضفت على النظم السياسية الغربية هيبة أمام أعين شعوب الدول غير الغربية وإن لم تكن هذه الهيبة قائمة على سبب معقول .

ولقد كان الدمار الذى جاء نتيجة تطبيق نظام « القوميات » الغربى فى هذه المناطق من العالم غير الغربى وهو نظام دخيل عليها — كان هذا الدمار أخطر وأعظم من الدمار الذى أحدثه نفس هذا النظام فى بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الغربية الأخرى وهى الدول التى لم يكن هذا النظام فيها بدعة دخيلة غير طبيعية بل كان نمواً قوميا تلقائيا فيها .

ونستطيع أن ندرك لماذا كان لنفس النظام أثر مختلف يلفت النظر فى كل من هاتين البيئتين الاجتماعيتين المختلفتين . فنظام « الدول القومية » أو بعبارة أوضح والقوميات الغربية لم يكن نظاما ضارا إلى حد كبير بالنسبة لأوروبا الغربية نظراً لنفس الدافع الذى أدى إلى ظهوره هناك لأن وجوده فى الدول الغربية كان استجابة للعلاقة المحلية بين توزيع اللغات من ناحية وبين تخطيط الحدود السياسية من ناحية أخرى . فقد حدث فى الدول الغربية أن كل الشعوب التى كانت تتكلم لغة واحدة كانت فى معظم الحالات تتجمع معاً فى منطقة واحدة تتزاحم بصفة مستمرة داخل حدود لغوية محددة إلى حد ما وهذه الحدود اللغوية هى التى تفصل هذه المنطقة عن المناطق المشابهة الأخرى التى تسودها لغات أخرى .

وفى المنطقة التى يكون توزيع اللغات فيها قائما على أساس تنوع لغوى نجد أن الخريطة اللغوية هى التى تساعد إلى حد ما فى تحديد رسم الخريطة السياسية ومن ثم تظهر القوميات الغربية أو الدول القومية الغربية نتاجا طبيعيا للبيئة الاجتماعية .

وليس من شك فى أن معظم مناطق الدول التاريخية فى أوروبا الغربية تتوافق فى الواقع توافقا تقريبيا مع الأجزاء المتجانسة من الخريطة اللغوية وهذا التوافق قد جاء فى كثير من الحالات على نحو تلقائى غير مرسوم ولم تكن شعوب أوروبا الغربية تدرك تماما هذه العملية التى تشكلت فيها حدودهم السياسية على أسس لغوية .

ومن ثم كانت روح القومية تلعب دورها وتسير طريقها فى بساطة ويسر داخل مواطنها فى غرب أوروبا أما الاقليات اللغوية فى الدول القومية فى أوروبا الغربية وهى الاقليات التى وجدت نفسها فى وضع غير صحيح من حيث التخطيط السياسى فقد أعلنت ولاءها وإخلاصها فى المناطق اللغوية المختلفة التى وجدت نفسها فيها وعوملت من أهل هذه المناطق معاملة تستحق الاعتبار لأن تعايش هذه الاقليات مع أغلبية تتحدث اللغة القومية باعتبارهم زملاء مواطنين فى كومنولث واحد أصبح حقيقة تاريخية لم يأت بها عهد أتى إنسان ولا يستطيع أحد أن يعترض عليها .

ولكن لندرس الآن ماذا حدث حين ادخل هذا النظام الأوربى الغربى أى نظام الدول القومية الغربية — وهو النظام الذى كان فى موطنه الأصلى يمثل أوروبا الغربية نتاجا طبيعيا للخريطة اللغوية المحلية — إلى مناطق أخرى غير غربية كانت تقوم فيها الخريطة اللغوية المحلية على أساس يختلف تماما عما كانت عليه فى أوربا الغربية .

وحينئذ ننظر إلى الخريطة اللغوية خريطة العالم لا خريطة اوروبا الغربية نرى ان النموذج الغربى المحلى الذى قام فيه توزيع اللغات على أساس تكتلات متجانسة مزدحمة كان نموذجا غريباً وشاذاً إلى حد ما . ففى منطقة فسيحة تمتد من دانزج وتريستى حتى كلكتا وسنغافوره نرى ان نموذج الخريطة اللغوية فى كل هذه المنطقة لا يشبه نموذج خريطة لغوية مرقعة بل هو اشبه ما يكون بخيط حريرى واحد ملون .

وفى اوروبا الشرقية وكذلك فى جنوب غرب آسيا والهند والملايو لا يكاد يختلف هؤلاء الذين يتحدثون لغات مختلفة بعضهم عن البعض الآخر — كما هو الحال مثلا فى اوروبا الغربية . فهم جميعاً متشابكون من الناحية الجغرافية فى منازل متلاصقة متبادلة تقع كلها فى شوارع واحدة لمدن وقرى واحدة . وفى هذا الوضع الاجتماعى العادى المتنوع نجد الخريطة اللغوية التى تداخلت فيها الخيوط ذوات الألوان المختلفة كل منها مع الآخر — نجدها تمثل اساساً يساعد لا على رسم الحدود بين الدول بل توطين السكان وتنظيم الشئون التجارية بين الأفراد .

وفى الامبراطورية العثمانية منذ مائة وخمسين عاماً مضت أى قبل أن يدخل النظام الغربى الخاص بفكرة الدول القومية إلى هذه المنطقة الاجنبية عليه كان الاتراك يشتغلون بالفلاحة والاعمال الإدارية وكان اليونانيون يشتغلون كبحارة وأصحاب حوانيت والأرمينيون رجال مصارف والبلغاريون عمال خيل سايس والألبانيون بناءين وجنوداً مرتزقة والاكراد رعاة وحمالين .

ولم تكن القوميات فى هذه المنطقة مندمجة بعضها مع بعض فقط كواقع جغرافى بل كانت كل منهما تكمل الأخرى اقتصاديا واجتماعيا .

وهذا التجاوب أو هذا الارتباط بين القوميات والسكان كان نظاما طبيعيا فى عالم لم تكن الخريطة اللغوية تشكل فيه قطعة مرقعة بل كانت بمثابة العجينة المتماسكة وكان الاسلوب الوحيد لخلق دول قومية فى هذا العالم العثمانى تأتى على النمط الغربى هو القيام بتحويل هذه العجينة القومية المتماسكة إلى قطعة مرقعة تشبه النموذج اللغوى السائد فى اوروبا الغربية .

ولم يك من الممكن تنفيذ ذلك إلا بعد استعمال كثير من وسائل العنف التى ظلت تستخدم طوال مدة امتدت حوالى مائه وخمسين عاما وكانت لها نتائج مدمرة فى جزء بعد آخر من المنطقة التى تمتد حتى حدود البنغال الشرقية . وهكذا كان هناك دمار هائل احدثه نظام أو فكرة او تكنيك انطلق من موطنه الأصلى وذهب بنفسه إلى بيئة اجتماعية أخرى تصارع داخلها مع نموذج محلى تاريخى للحياة الاجتماعية .

وليس من شك فى أن كل نموذج حضارى تاريخى يعتبر كلا عضويا تعتمد اجزاؤه كلها بعضها على البعض الآخر ، وإذا حدث أن انفصل جزء من هذه الأجزاء من مكانه فإن كلا من الجزء المنفصل والكل الذى انشق منه هذا الجزء يتصرفان تصرفا مختلفا عن تصرفهما حين كان النموذج كله متماسكا . .

وهذا هو السبب فى أن اللحوم بالنسبة لإنسان يمكن أن تكون سما بالنسبة لإنسان آخر . .

وهناك كذلك نتيجة أخرى هى ، أن وجود شىء ما قد يؤدى إلى وجود شىء آخر ، فلو أن جزءا من أية حضارة قد انفصل عن هذه الحضارة ثم أدخل إلى جسم اجتماعى آخر أجنبى عنها فإن هذا الجزء المنفصل سيجر وراءه إلى داخل هذا الجسم الاجتماعى الأجنبى الذى استقر فيه واستوطنه أول سيجر وراءه العناصر الاساسية الاخرى التى يتكون منها النظام الذى انفصل عنه هذا الجزء بطريقة تعسفية غير طبيعية .

ثم يميل هذا الشكل الذى تحطم إلى ان يعيد بناء نفسه فى بيئة اجنبية بعد أن اوجد لنفسه فيها طريقا يسلكه .

وإذا كنا نريد ان نعرف فى ميدان التداخل الحضارى كيف يمكن ان يؤدى وجود شيء إلى وجود شيء آخر إذا كنا نريد ان نعرف كيف تتم هذه العملية على الطبيعة فإن علينا ان ننظر إلى مثال او مثالين مجردين . فقد جاء فى الكتاب الأزرق الذى اصدرته المملكة المتحدة والذى مسح مصر اجتماعيا واقتصاديا عام ١٨٣٩ انه تم فى مدينة الاسكندرية فى هذا التاريخ بناء مستشفى رئيسى للولادة داخل نطاق منطقة الترسانة البحرية وكان لهذا وقع غريب : ولكننا سنرى ان تنفيذ مثل هذه الخطوة كان امراً محتما خاصة إذا تتبعنا توالى الأحداث التى ادت إلى هذه النتيجة التى تدهشنا حين ننظر إليها لأول وهلة . فقد ظل محمد على والى مصر التركى ابتداء من عام ١٨٣٩ ولمدة اثنين وثلاثين عاما يعمل على تزويد نفسه بالأسلحة الحديثة التى كان يستخدمها الجيل الغربى المعاصر له يومذاك وكان فشل حملة نابليون على مصر دافعاً جعل محمد على يتنبه إلى اهمية ما للقوة البحرية من اثر فقرر أن يصبح له اسطول بحرى يتكون من مجموعة لا بأس بها من السفن الحربية الحديثة النماذج الغربية .

وادرك أنه لن تكون لديه الكفاية الذاتية من حيث القوة البحرية مالم يكن فى موقف يسمح له بأن يصنع السفن الحربية فى ترسانة مصرية كما أدرك كذلك أنه لن يستطيع أن يتوافر لديه جهاز من الموظفين المصريين الفنيين فى شئون الأساطيل البحرية مالم يستعن بمهندسين بحريين من الدول الغربية وعدد آخر من الخبراء فى شئون الأساطيل البحرية لتدريب الطلبة المصريين ومن ثم أعلن محمد على عن حاجته إلى خبراء غربيين فسارع الكثيرون منهم بتقديم طلباتهم للعمل فى مصر خاصة وأن الأجور العالية التى عرضها محمد على كانت من الإغراء بحيث لا يمكن رفضها .

غير أن هؤلاء الخبراء والمهندسين رفضوا توقيع عقودهم مالم يأخذوا ضمانات أكيدة بإحضار أسراتهم معهم ثم رفضوا إحضار أسراتهم معهم مالم

يأخذوا ضمانات كافية بوجود شروط مناسبة فيما يتصل بالرعاية الصحية لهم ولعائلاتهم على أن تكون هذه الرعاية على مستوى مثيلتها في ميدان الخدمات الطبية في الغرب .

وهكذا وجد محمد على أنه لن يستطيع أن يستأجر خبراء الأساطيل البحرية الغربيين الذين كان في حاجة إليهم مالم يستأجر معهم كذلك أطباء غربيين لرعاية عائلات هؤلاء الخبراء ، ولما كان محمد على يريد أن يرضى غروره ويحقق أطماعه الشخصية بخلق أسطول مصرى فقد وجد نفسه مضطراً إلى استخدام عدد من الأطباء الغربيين .

وهكذا حضر إلى مصر خبراء مهندسون وأطباء غربيون تصحبهم عائلاتهم وبينما كان الخبراء يقومون بوضع أساس الترسانة المصرية كان الأطباء الغربيون في نفس الوقت يقومون بأعمالهم الطبية بالنسبة لزوجات وأطفال الجالية الغربية الجديدة التي استوطنت الاسكندرية غير أن الخدمة الطبية والرعاية الصحية لهذه الجالية لم تكن تستغرق كل وقت هؤلاء الأطباء الغربيين فكان لديهم متسع منه يستطيعون أن ينفقوا ولو جزءاً منه للسكان المحليين فبدأوا بإقامة مستشفى للولادة . .

ولهذه القصة مغزاها الذى نريد أن تصل إليه وهذا المغزى هو السرعة التى أمكن بها في ميدان التداخل الحضارى أن يؤدى وجود شىء إلى وجود شىء آخر .

ففى ذلك الوقت كانت سياسة العزل التقليدى للمرأة المسلمة عن الاتصال بالرجال خارج منزلها لا تزال مفروضة على نحو دقيق حتى فى تركيا خلال القرن الثامن عشر وحتى عندما تكون أعلى وأعز زوجات السلطان من المرض بحيث تصبح حياتها عرضة لخطر موت محقق كان أقصى ما تسمح به قواعد السلوك الإسلامية للطبيب الغربى أن يفعله مع هذه الزوجة هو أن يجس نبض يدها التى تمدها فى حياء وخجل من بين ستائر محكمة الغلق على سريرها غير المنظور .

وكان الحاكم التركي الأوتوقراطي ضعيفا أمام سلطة التقاليد الإسلامية والعرف الاجتماعي الإسلامي بحيث لا يستطيع أن يخدشه حتى ولو كان في أمر يتعلق بالحياة والموت بالنسبة لأغلى زوجة عنده . ولكن السيدة المسلمة في ذلك الوقت كانت تغامر في جرأة بالذهاب إلى منطقة الترسانة الأجنبية لتستفيد من خدمات أطباء الولادة الغربيين الكفار . وكان هذا الاعتداء الجرىء لخرق مفاهيم الحشمة الإسلامية التقليدية في ميدان العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة نتيجة لتنفيذ قرار محمد على تزويد نفسه بأسطول بحرى يتم إنشاؤه على النمط الغربي . فهذا التأثير الاجتماعي البعيد الذى جاء اتفاقاً كما رأينا كان خطوة تالية طبيعية لوجود دافع تكنولوجي .

وهذا القطاع من التاريخ الاجتماعي الذى يعبر أتم تعبير عن المعنى الذى يعطيه هذا القطاع يعطينا مقياس الدرجة التى كان عليها رجال السياسة العثمانية في القرن التاسع عشر من خداع أنفسهم حين تخيلوا ان في استطاعتهم ان ينجحوا في تزويد بلادهم بما تحتاج إليه من الأسلحة الغربية ثم يوقفوا بعد ذلك وعند هذا الحد فقط طغيان امتداد شتى فروع التأثير الغربي .

ولم يكن العثمانيون مقتنعين إلا بعد عصر مصطفى أتاتورك بأنه أثناء عملية التداخل الحضارى يمكن لشيء أن يؤدى إلى شيء آخر فإدخال الأسلحة الغربية وما يتبع ذلك من تموينات وملابس إلخ . سيؤدى حتما إلى إدخال شيء آخر وهذا الشيء لم يكن قاصراً على تحرير المرأة المسلمة من بعض التقاليد التى كانت تحكم عالم تركيا المسلمة بل امتد حتى زحف إلى الأبجدية العربية التى استبدلت بأبجدية لاتينية ، وتحطمت إلى حد ما سلطة التزمت الدينى التى كان لها في الماضى نفوذ دقيق في كل مجال من مجالات الحياة في الإمبراطورية التركية ولم يكن أحد يستطيع أن يقف أمام هذا النفوذ .

وقد أدرك المهاتما غاندى أو أتاتورك الهند العظيم كما يحلو لى أن أسميه إذ أدرك في العصر الحديث أن من الممكن في ميدان الاحتكاك الحضارى أن يؤدى

شيء إلى شيء آخر فقد رأى هذا الزعيم أن القطن — وهو المحصول الذى يزرع فى الهند ولكنه يغزل فى بوركشير يتحول إلى قاش منسوج ليلبسه الشعب الهندى — رأى هذا الزعيم أن هذه الخيوط من القطن تشكل تهديداً خطيراً من شأنه أن يربط الهند بالعالم الغربى على نحو محكم ومعقد بحيث يصبح من الصعب التخلص منه لأنه سيصبح بمثابة القيود المصنوعة من الصلب ورأى المهاتما أن الهنود لو ظلوا يرتدون هذه الملابس التى تصنعها الماكينة الغربية فى الغرب فإنهم سرعان ما سيضطرون إلى استعمال نفس هذه الماكينة فى الهند بعد ذلك لتحقيق نفس الغرض فهم (أى الهنود) سيستوردون أولا آلات الغزل وأنوال النسيج ذات القوى من انجلترا ثم يتعلمون طريقة إقامة هذه الآلات والعدد فى بلادهم وقد يستتبع ذلك بطبيعة الحال أن يتركوا حقولهم وميادين أعمالهم التقليدية الأخرى لكى يعملوا فى مصانع القطن الهندية الجديدة التى شيدوها لأنفسهم .

وعندما يتعودون قضاء أوقات العمل فى هذه المصانع ويقيمون بوظائفهم فيها طبقاً للنظام الغربى الذى اقتبسوه فانهم كذلك سيتعودون بالتالى قضاء أوقات فراغهم على النحو الذى يقضى به الغربيون أوقات فراغهم أيضاً أى أنهم سيمارسون نفس وسائل التسلية التى يمارسها الغربيون حتى يجدوا أنفسهم فى النهاية وقد شبوا على الروح الغربية تماما فينسون كيف يمكن أن يكونوا هنوداً أصلا .

وبهذه النظرية البعيدة التى نفذ بها النبى الزعيم إلى أعماق الحقيقة رأى غاندى أن هذه الحبة من بذرة القطن ستنمو لتصبح شجرة ضخمة تحجب فروعها المتكاثرة أرض — القارة الهندية .

ولذلك أهاب بمواطنيه أن يحافظوا على الروح الهندية بالقضاء على جذور الشجرة الغربية ووضع لهم نموذجا يسيرون عليه فى قضاء فترة من أوقاتهم كل يوم يغزلون وينسجون فيها القطن الهندى بأيديهم على الطريقة الهندية التقليدية القديمة لكى يصنعوا لأنفسهم الملابس التى يرتدونها فقد رأى المهاتما أن قطع

مثه الاتصالات بين الهند والغرب هو وحده السبيل المضمون لإنقاذ المجتمع الهندي من أن يصبح غربياً جسداً وروحاً .

ولم يكن ثمة أي خال في هذه النظرة الثاقبة التي يراها غاندي فتغريب الهند اي تحويلها إلى دولة غربية في شكلها وروحها - وهو الاتجاه الذي كان غاندي يعمل على إبعاده وصده - كان ينبثق في سرعة عجيبة من هذه الحبة الأصيلة لبذرة القطن وكان علاج المهاتما لعدوى الهند من الغرب على هذا النحو علاجاً صحيحاً وسليماً .

إلا ان هذا الزعيم النبي لم يفشل إلا في ان يقنع تلاميذه واتباعه بأن يسيروا على نصائحه التي كانت تهدف إلى الاحتفاظ للهند باستقلالها الحضاري وذلك ان يأخذ الهنود انفسهم بهذه التعاليم الاقتصادية الصارمة فارتداء الملابس القطنية التي تصنعها الماكينات لم يكن من الممكن رفضه من جانب الشعب الهندي في جيل غاندي دون ان يحدث انخفاض في مستوى معيشة الفلاح الهندي وهو مستوى كان منخفضاً فعلا وايضاً دون تعطيل اعمال كل من الطبقات الجديدة من عمال القطن الهنود واصحاب الشركات والمصانع الهنود ايضاً وهم الذين نبتوا من تربة هندية في بومباي بل وفي مدينة احمد اباد مدينة غاندي نفسه . غير ان غاندي وهذا مما لاشك فيه - قد احدث اثراً كبيراً وربما اثراً خالداً في تاريخ الهند وفي تاريخ العالم كذلك إلا ان سخرية التاريخ وقسوته قد قضتا على الاثر الذي احدثه غاندي بأن لا ينقذ الهند من تغريبها اقتصادياً اي تحويل نمطها الاقتصادي إلى نمط غربي بل دفع الهند إلى ان تسير على النموذج السياسي الغربي كذلك .

ولم تستطع عبقرية غاندي أن تقف في ميدان الصراع امام الدور الذي يقوم به القانون الاجتماعي في الصراع الحضاري يظل يوجد شيء ما يؤدي في ضلالة وعناد إلى وجود شيء آخر حين يحدث ادنى تصدع في جبهة دفاع المجتمع الذي يقع عليه الهجوم .

وتوضح دراستنا فى هذه أن استقبال حضارة أجنبية أمر مؤلم كما أنها فى الوقت نفسه عملية خطيرة للغاية وإن النفور الغريزى للشعب الذى وقع ضحية هذه الحضارة الجديدة ونفوره من المستحدثات الجديدة التى تهدد بقلب طريقة حياته التقليدية رأساً على عقب يجعل التجربة بالنسبة لهذا الشعب شيئا مؤلما وحين يقوم بعملية مقاومة ما يواجهه من أضرار يكون بذلك فى مرحلة عملية تحليل لشعاع الحضارة الأجنبية الوافدة إلى عناصره الأساسية الأولى ثم يضطر فى النهاية إلى التسليم فى شيء من الحقد والكراهية التسليم لأتفه وأصغر جزء من أجزاء نموذج طريقة الحياة الأجنبية على أمل أن يستطيع حماية نفسه من عدم الاستسلام فيما بعد لأكثر من هذا .

إلا أنه لما كان من المحتم « كما عرفنا » أن أحد الأشياء يؤدى إلى شيء آخر فإن هذا الشعب الذى أصبح ضحية الغزو الحضارى الجديد يجد نفسه مضطرا فى النهاية إلى الاستسلام والقبول ببقية إجزاء الحضارة الدخيلة وهذا القبول او الاستسلام يتم عادة بصورة تدريجية . وليس من العجيب ولا من المدهش أن نعرف أن هذا الموقف العادى من جانب الشعب الذى وقع عليه الغزو الحضارى تجاه الحضارة الأجنبية الدخيلة عليه إنما هو موقف يمكن أن نسميه « بموقف الانهزام الذاتى لروح المعارضة والكراهية » .

ولقد أتيحت لنا أثناء دراستنا السابقة الفرصة التى لاحظنا فيها كيف أن بعض الساسة فى دول غير أوروبية قد تأثروا بالغرب الذى كانت له نظرة ثاقبة رأى بها أن أي مجتمع يعيش فى حالة الضوء الذى ينبعث من شعاع حضارة أجنبية أكثر فعالية وقدرة لابد له من أن يقتبس طريقة الحياة عند هذه الحضارة الأجنبية أو ينتهى من عالم الوجود .

ولقد مرت بنا كما رأينا بأعيننا كذلك نماذج أوضحت لنا صحة ما نذهب إليه تمثلت هذه النماذج فى بطرس الأكبر وسليم الثالث ومحمود الثانى ومحمد على ومصطفى أتاتورك وساسة اليابان فى عصر ميجى .

وليس من شك فى ان هذه الاستجابة من جانب هؤلاء السياسيين لتحدي

الهجوم الحضارى الجديد عليهم دليلا على انتصارهم على الاتجاهات الطبيعية فى هذا الصدد ليست سوى نوع من الاستجابة السلبية التى يتخذها المحار يغلق صدفته على نفسه والسلحفاة التى تنسحب داخل درقتها والقنفذ حين يكور نفسه ليتحول إلى كرة شوكية والنعامة حين تخفى رأسها فى الرمال .

وليس من شك فى ان معرفة الطريقة التى يحارب بها شعب حضارة اجنبية تهاجمه باستخدامه اسلحة هذه الحضارة امر يثير الشكك فى أذهان المحافظين أليس بطرس واتاتورك وغيرهما كانوا فى الواقع يبيعون القلعة بحجة انهم يرفعون اسوار دفاعها حتى تلائم تيارات العصر الحديث ؟ أليس الحق فى ان الاستجابة لدخول حضارة اجنبية قرار حاسم لمقاطعة هذا الشيء الكريه ؟

فإذا قبلنا فى دقة كل جزء من القانون المقدس الذى فرضه علينا إله آبائنا التى يتحرك هذا الإله بقوته العظيمة للدفاع عنا ضد اعدائنا الكفار ؟ . . فى روسيا كان هذا هو رد الفعل عند المؤمنين الشيوخ الذين واجهوا ميتة الشهداء من اجل لحظة خاطفة وفى أعين الاجانب كان رد فعل مسألة طقوس كهنونية لا اهمية لها اما فى العالم الإسلامى فقد كان رد الفعل هو ظهور الحركات الوهابية والسنوسية والأزدية وغيرهم من اصحاب المذاهب الدينية المتطرفين الذين عاهدوا انفسهم على الجهاد وفى سبيل الله ضد العثمانيين المارقين الذين خانوا فى نظر هؤلاء حين أخذوا بطريقة الحياة الغربية .

الفصل السادس

العالم مع الإغريق والرومان

الإعجاب الذاتي واحد من العيوب التي تصيب المخلوق البشرى كما نعرف من التجربة الشخصية وهذا الإعجاب أو التركيز الذاتي عند الإنسان يولد دائماً الغرور فى نفسه .

وليس هناك شخص أو قبيلة أو طائفة إلا وتعتقد فى نفسها أنها الدعاء البشرى المختار . وهذا الزيف فى اعتقادنا بأن لنا أهمية وقيمة لا نظير لها زيف لا يصبح أمرا واضحا أمامنا غير أنه سرعان ما نستطيع أن نكتشف هذه المغالطة حين تكون الحالة حالة شخص آخر يملأ الغرور نفسه . ونحن معشر الغربيين باعتبارنا مخلوقات بشرية نميل إلى الشعور بأن ما قدمناه للعالم خلال القرون القليلة الماضية كان شيئا لم يكن له مثيل من قبل . والعلاج الوحيد لهذا الغرور عند الغرب هو أن نرجع إلى الوراء — وليس إلى الوراء البعيد جدا لنرى مقدار ما قدمه الإغريق والرومان للعالم فسنرى انهم قد سادوا العالم فى عصرهم وأنهم كانوا يعتقدون كذلك فى وقت من الأوقات أنهم يختلفون عن غيرهم من الناس . وسنرى أيضاً قبل أن نصل إلى نهاية هذه القصة — أى قصة صراع العالم مع الإغريق والرومان أن تقدير المجتمع الإغريقى الرومانى لأهميته قد انهار حين وضعنا تقديره لأهميته فى ميزان التاريخ الذى يحدد الحقيقة .

فقد كان للتوسع الذى أحرزه الغرب فى العالم وهو التوسع الذى بدأ مع انتصاراتنا المفاجىء على المحيطات فى أواخر القرن الخامس — كان لهذا التوسع نظير فى التاريخ الإغريقى الرومانى إلا أنه كان توسعا بريا حدث فى عصر الاسكندر الأكبر فى القرن الرابع قبل الميلاد .

ولقد أحدث زحف الاسكندر من الدردنيل إلى الفيجار عبر آسيا تغيراً ثورياً فى ميزان القوى العالمية مثلما أحدثت رحلات داجاما وكولومبس نفس الشئ وتبعت هذه الثورة التى أحدثها الاسكندر كما تبع رحلتى داجاما وكولومبس انتصارات واسعة تمت بعد ذلك .

فى القرن الثانى قبل الميلاد غزا الإغريق الهند من الشرق حتى البنجال وكسب الرومان فى نفس القرن ايضا لصالح العالم الإغريقى الرومانى موقعاً أماميا على المحيط الأطلنطى فيما يعرف الآن باسم اسبانيا الجنوبية والبرتغال . فكانت اللغة الإغريقية الأصلية التى كتب بها العهد الجديد فى القرن الأول من العصر المسيحى لغة الحديث كما كانت اللغة المفهومة كذلك بين شعوب المنطقة التى تمتد من الترافنكور حتى البلاد الخلفية من مرسيليا وضمت بريطانيا فى نفس هذا التاريخ إلى العالم الأغريقى الرومانى بقوة الأسلحة الرومانية بينما كان الفن الأغريقى فى نفس هذا الوقت ايضاً — وكان يعمل فى خدمة دين هندى هو البوذية — ينتقل فى سلام تجاه الشمال الغربى من أفغانستان على طول طريق كان ينتهى عبر الصين وكوريا إلى اليابان .

وهكذا انتشرت الحضارة الاغريقية الرومانية فى عصرها . داخل مجال مادى بحت على نطاق واسع فى العالم القديم تماما كما انتشرت الحضارة الغربية واستطاع الاغريق فى عصر لم يكن قد رأى بعد ظهور الحضارة القومية للامريكيتين استطاعوا ان يفخروا — كما نستطيع ان نفخر نحن اليوم كذلك بأن كل حضارة كانت تعاصرهم على وجه الأرض قد وصلت إلى مكانها وتغلغلت فيه بفضل إشعاع حضارتهم التى غزت العالم كله .

وتأثير الحضارة الإغريقية على العالم خلال القرن الرابع قبل الميلاد وبعده قد سبب لهذا العالم هزة عنيفة تشبه تلك الهزة التى أحدثها تأثير الحضارة الغربية المعاصرة على هذا العالم أيضاً منذ القرن الخامس عشر الميلادى : ولما كانت الطبيعة البشرية لم تجرب بعد أى تغيير محسوس خلال آلاف السنين القليلة الماضية فليس من المدهش أن نرى رد الفعل التيكنولوجى البديلة بالنسبة

للغزو الحضارى وهو ما لاحظناه فى تاريخ صراع العالم مع الغرب - ليس من المدهش أن نرى ردود الفعل هذه تعان عن وجودها أيضاً فى تاريخ صراع العالم فى فترة أقدم أى مع الاغريق والرومان .

ويمكن لهذه المرحلة من التاريخ ان يجمع معا كلا من تهديها المتزمت وبطرسها العظيم فعلى نموذج بطرس مثلا ظهر « ميترادیتس » الأكبر الملك الإيرانى الذى حكم فى آسيا الصغرى وهو الملك الذى تفوق على الرومان بتسليح قواته وتدريبها على النمط الإغريقى والرومانى وبمنازلته روما كبطل ونصير للأغريق وحضارتهم .

وقبل نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ظهر شيء ما أشبه مايكون بالتمرد المندى بين القوات المصرية الوطنية وهى القوات التى سلحها ودربها على الأسلوب الأغريقى ملك مصر الأغريقى هو « بطليموس » بقصد الدفاع عن مناطق نفوذه من أى غزو يقوم به معاصره الاغريقى فى جنوب غربى آسيا وأوقع المصريون الذين تدربوا على النمط الاغريقى الهزيمة الساحقة بالقوات الاغريقية وكان هذا الانتصار المدهش على خلفاء جنود الإسكندر الذى لم يكونوا ليهزموا إنما يرجع الفضل فيه إلى قادة هؤلاء المصريين . ثم حدثت بعد ذلك ثورات بين أسوأ كل الشعوب الشرقية حظاً وهى الشعوب التى وقعت تحت حكم إغريقى أو رومانى وأعنى بها الشعوب الآشورية الذين اختطفهم الاغريق ونقوهم فيما وراء البحار للعمل كرقيق مصفدين بالأغلال فى مزارع الاغريق فى جزيرة صقلية وقام هؤلاء الرقيق الآشوريون فى صقلية فى فترة ماقبل نهاية القرن الثانى قبل الميلاد بثورتين يائستين ضد سادتهم من الاغريق والمناصرين لهؤلاء السادة من الرومان .

على أن هذه القصة البشعة للاضطهاد العنيف والثورة الوحشية التى حدثت فى الفصول الأولى من تاريخ صراع العالم الاغريقى والرومانى قد وجدت لها أيضاً امتداداً فى الفصول التى نعرفها من تاريخ صراع هذا العالم مع الغرب .

فتجارة الرقيق التى تأثرت بالغرب واصطبغت بطابعه وهى السياسة التى كانت وصمة عار فى جبين شعوب البحر الأبيض المتوسط قد ظهرت مرة أخرى فى الأطلنطي وثورة عبيد الأرض التى قضى عليها فى جزيرة صقلية قد أحرزت مثيلتها انتصارات رائعة وحركة التمرد التى أعلنتها القوات المصرية التى تدربت تدريباً افريقيا فى عهد بطليموس قد شابهتها حركة تمرد قام بها الجنود الذين تدربوا هم الآخرون تدريباً غربيا فى عهد شركة الهند الشرقية البريطانية ويجب أن نلاحظ أن حركات المقاومة التى يقوم بها الشرقيون العسكريون ضد السيادة الأجنبية وهى تكرار لثورات اليهود الفاشلة المعادية للصيلبية وتكرار أيضاً للثورات الناجحة التى قامت بها الشعوب الإيرانية المعاصرة المعادية للهيللينية هذه الحركات أى حركات المقاومة العسكرية تعيش اليوم فى إبان معمعاتها فى الهند الصينية وفى الملايو وتهدد بانفجار رهيب فى ثلاث مناطق من افريقيا (كان هنا الوضع فى عام ١٩٥٢ حين وضع توينبي هذا الكتاب) .

وإلى هذا الحد نستطيع أن نقرأ القصة فى تاريخنا دون الحاجة إلى الرجوع إلى الملفات الافريقية والرومانية ولكننا نصل الآن بل نتجاوز المدى الذى يستطيع الأصبع المتحرك ان يكتب عنده على الصفحة المفتوحة من كتابنا آخر الأحداث من تاريخنا الذى لا يزال مجهولا اما فيما وراء هذا المدى — واقصد به المستقبل — حيث يخفى الستار ما سيأتى بعد فان التاريخ الاغريقى الرومانى يمثل اغنى مصدر للمعلومات الوافية حول ما يمكن ان يكون مخبأ لنا .

وانا لا اقصد بالطبع ان اشير إلى ان فى استطاعتنا ان نقرأ طالع مستقبلنا بملاحظاتنا ما حدث فى التاريخ الاغريقى الرومانى فيما وراء هذا المدى حيث يتوقف سجل تاريخنا وترجمتنا بطريقة آلية ما سجله التاريخ الاغريقى الرومانى من عبارات غربية حديثة . فالتاريخ لا يمكن ان يعيد نفسه بطريقة آلية . واعظم ما يمكن أن يوحى به إلينا التاريخ الاغريقى والرومانى هو ان يكشف لنا عقدة من بين عدد كثير من عقد المستقبل المحتملة فى الدراما الغربية الحديثة .

ومن المفهوم اننا معشر الغربيين ومعنا كذلك معاصرونا من غير الغربيين فيها

نضفى على طريقة صراع كل منامع الآخر دوراً مختلفاً ليس له مقابل فى التاريخ الاغريقى والرومانى ونحن حين نتفحص فى مستقبلنا نكون كمن يتحسس طريقه فى وسط ظلام معتم فعلينا ان نكون فى منتهى اليقظة حتى لا نقع فى الوهم الذى يلوح لنا بأن فى مقدورنا ان نرسم حدود خريطة الطريق المخبوء امامنا وسنكون كذلك من الغباء والحمق حين لا نستفيد من بصيص اى عضو يلوح امام اعيننا وقد يكون شعاع الضوء الذى تعكسه على مستقبلنا مرآة ماضى التاريخ الاغريقى الرومانى هو على اى حال اقوى الأضواء المنظورة امامنا .

وبهذا الحرص والحذر سنواصل تقليب صفحات كتاب تاريخ الاغريق والرومان حتى نصل إلى صورة منتصف طريق العالم الاغريقى الرومانى خلال القرن الثانى بعد المسيح وحين نقارن هذه بصورة نفس هذا العالم قبل ذلك بمائتى عام فسندرك على الفور أنه فى هذه الفترة الفاصلة ظهر تغيير إلى أحسن لم يكن له لسوء الحظ نظير فى تاريخنا الغربى الحديث فقد تأثر العالم الاغريقى — الرومانى فى خلال القرن الاخير قبل الميلاد بثورات وحروب وإشاعات حروب وظل يفور ويغلى بحركات عنف وهياج كما يعيش عالمنا الغربى اليوم ولكننا نجد السلام فى منتصف الطريق خلال القرن الثانى بعد الميلاد يسيطر على منطقة تمتد من جانجيز حتى تاين .

وهذه المنطقة الفسيحة التى تمتد من الهند حتى بريطانيا والتى أنتشرت فى ارجائها الحضارة الاغريقية الرومانية بقوة السلاح هذه المنطقة نراها مقسمة اليوم بين دول لا يزيد عددها عن ثلاث وهذه الدول الثلاث تعمل على أن تعيش جنبا إلى جنب دون إحداث أى احتكاك خطير بينها .

ولقد كانت الإمبراطورية الرومانية حول شواطىء البحر الأبيض المتوسط والإمبراطورية البارثية فى العراق وإيران والإمبراطورية الكوشية فى آسيا الوسطى وكذلك افغانستان والهندوستان وكانت كل هذه المناطق تشمل كل العالم الإغريقى الرومانى بينها ومع أن مؤسسى هذه الإمبراطوريات الثلاث وسادتها قد كانوا ينتمون جميعا إلى اصل غير اغريقى الا انهم مع ذلك كانوا عشاق كل

ما هو إغريق وكانوا فخورين بأن يطلقوا على انفسهم هذه التسمية اى انهم كانوا يرون أن من واجبهم ومن مميزاتهم ان يدعموا الشكل الإغريق للحضارة وان يعلوا من قدر نظام المجالس البلدية ذات الحكم الذاتى التى يبقى وجودها على وجود طريقة الحياة الإغريقية .

ثم لنتغلغل إلى اعماق وعقول الملايين من الإغريق والرومان وإلى ملايين اكثر من الهيلليين واشباه الهيلليين من الشرقيين السابقين الذين كانوا يعيشون تحت ظل سلام القرن الثانى الكوشى البارثى الرومانى .

لقد أنحسرت الآن أمواج الحرب وأمواج الثورة التى غمرت نفوس اجداد هذا الجيل ولم يعد هناك اثر أو ذكرى حية لكابوس المتاعب التى شهدها ذلك العصر فقد استقرت الحياة الاجتماعية بفضل السياسة البناءة الجديدة . ومع أن هذا الاستقرار كان ينقصه وجود بعض المثل العليافى ميدان العدالة الاجتماعية إلا أنه كان أمرا محتملا حتى بالنسبة للفلاحين والعمال بينما كان بديلا أفضل — فى نظر كل الطبقات من الفوضى الاسماعيلية التى وضع لها هذا الاستقرار نهاية طويلة . وأصبحت الحياة الآن أكثر امنا مما كانت عليه فى السابق وان كانت — لنفس السبب ايضاً — اكثر ثقلا وعبوسا .

على ان العمل الطيب الذى قامت به الحكومات ذات السلطة القادرة قد خلق عن غير عمد فراغا روحيا فى النفوس الانسانية فكيف يمكن إذن ملء هذا الفرغ ؟

هذا هو السؤال الهام فى العالم الاغريقى الرومانى خلال القرن الثانى بعد المسيح ولكن الفلاسفة والموظفين المستنيرين لم يكونوا يعرفون بعد أن مثل هذا السؤال كان مطروحا على بساط البحث والذين قرأوا مدلولات العصور واتخذوا إجراء عمليا فى ضوء هذه المدلولات هم رجال الأديان الشرقية الذين لم يكونوا معروفين بعد فهؤلاء الذين كانوا يدعون إلى الايمان بهذه الديانات الغريبة قد سلبوا فى رقة ولطف عنصر المبادأة من أيدى الاغريق والرومان بل كان هذا السلب من الرقة بحيث أن هذه الايدى القوية الصلبة لم تشعر بأى لمس ومن ثم لم يكن عند أصحابها أى نوع من الخوف أو الانزعاج . إلا أن الموجة قد تحولت فى ميدان

اختبار القوى الاغريقية الرومانية من العالم فقد انتهى هجوم القوى الاغريقية الرومانية وظهر هجوم مضاد أخرفى الافق ولكن هذه الحركة المضادة لم يكن قد اعترف بها بعد لأنها تختلف عن سابقتها فالهجوم الاغريقى الرومانى كان هجوما سياسيا عسكريا اقتصاديا بينما كان الهجوم المضاد الجديد هجوما دينيا وكان امام هذه الحركة الجديدة مستقبل هائل كما سيوضح الزمن . وإلى هنا نحب ان نتساءل ما هو سر اوما هى اسرار هذا النجاح الذى احرزته القوى المضادة الجديدة ؟ الواقع اننا نستطيع ان نضع ايدينا على ثلاثة اسرار من اسرار هذا النجاح .

اولها هو المثل الأعلى الذى جاءت به هذه الأديان الجديدة فيما يتعلق بالأخوة الإنسانية وهو المثل او الشكل الذى قضى على صراع الحضارات .

وثانيها هوان هذه المجتمعات الجديدة التى فتحت ابوابها لجميع الناس من جميع الجنسيات والحضارات دون تمييز بين حضارة واخرى ، او بين طبقة واخرى او بين رجل وامراة قد جعلت الأعضاء الإنسانيين الذين ينتمون إليها يرتبطون بالله علوى .

ثالثها هو السلام الذى دعت إليها هذه الديانات الجديدة .

وهكذا انقضى آخر فصل فى تاريخ صراع العالم مع الأغريق والرومان فبعد أن تغلب الإغريق والرومان على العالم بقوة السلاح استطاع هذا العالم أن يأخذهم بعد ذلك اسرى بتحويلهم إلىهذه الأديان الجديدة التىوجهت رسالتها إلى البشر جميعاً دون تمييز بين حكام ورعية أى بين اغريق وشرقيين فهل يمكن ان يحدث مثل هذا الشيء الذى حدث مع الإغريق والرومان فى الفصل الذى لم ينته بعد من قصة الصراع العالم مع الغرب .

نحن لا نستطيع ان نذكر الاجابة الآن مادمنا لانستطيع ان تنبأ بما سيأتى به المستقبل ولكننا نستطيع فقط ان ندرك ان الشيءالذى حدث مدةفى فصل اخر من فصول التاريخ يمكن ان يكون حدوثه محتملا فيماتأتى به الايام .

الدار القومية للطباعة والنشر
١١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥

